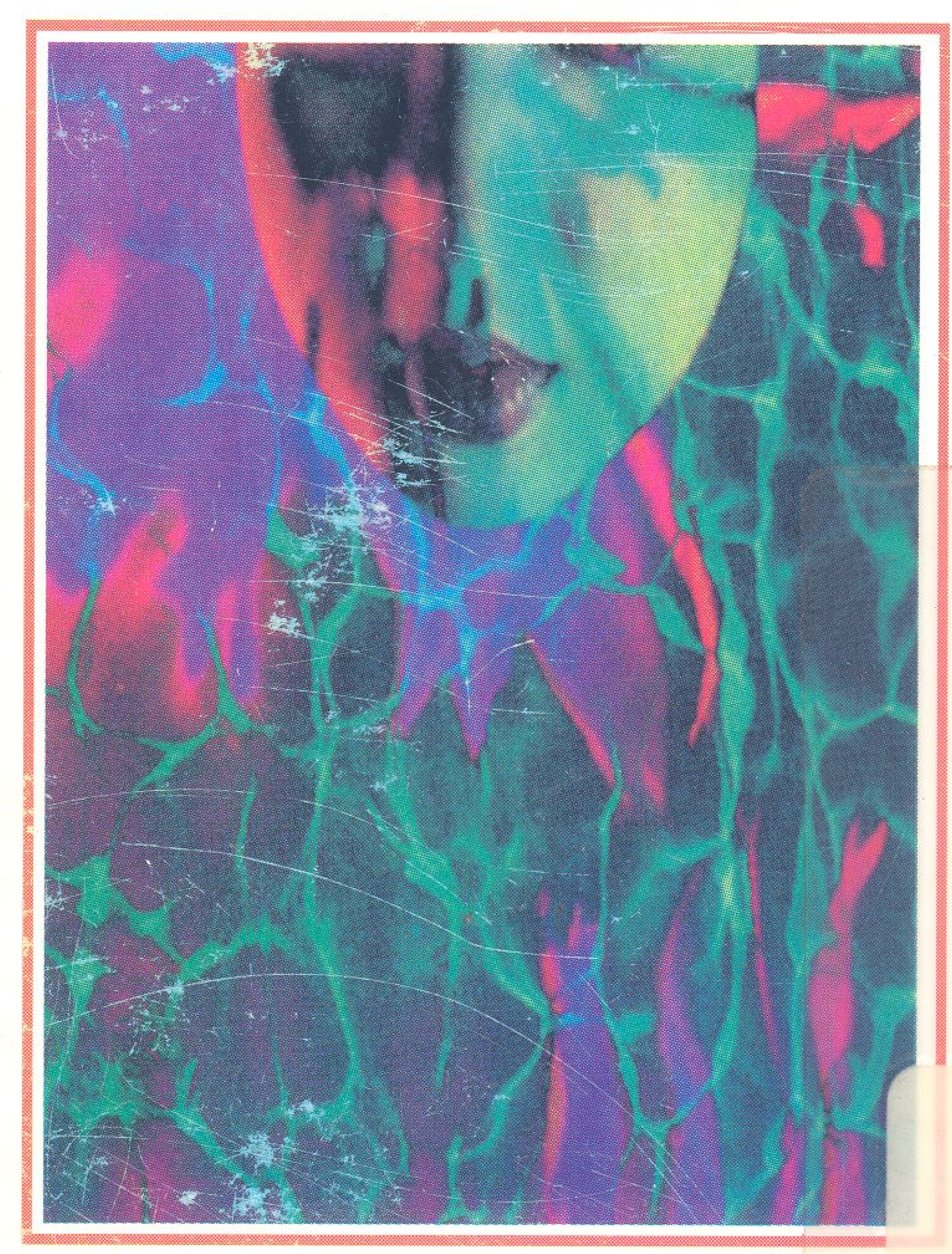
إبراهيم عبد المجيد

ليلة العشق والدم



رواية





ليلة العشق والدم

رواية قصيرة

إبراهيم عبد المجيد

لوحة الغلاف للفنان : جريج باسكوس

الطبعة العربية الأولى : ١٩٩٩

رقم الإيداع : ٢٠٥٦ / ٩٩

الترقيم الدولى " I.S.B.N.977-291-144-2



السلسلة الأدبية

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : شريف على

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

إبراهيم عبد المجيد

ليلة العشق والدم

رواية قصيرة



لا يصدق .. بعد عشرين عاماً يقتل «دومة» حسن المعداوى . وكيف ؟ . أمام عينيه . كأنه - فؤاد - ما جاء ليتلقى العزاء فى أبيه ، بل ليرى المشهد - وإن صار معكوساً - مرتين .

عشرون عاماً شئ لا معنى له حقاً إن لم تبدل فى النفوس .

يدهشه أنه لم يتوقع وجودهما ، لم يفكر فيهما ، نسيهما كما نسى الناس جميعاً هنا . ما الذى جعله يرسل الرسالة اللعينة ؟ ... الوالد الكريم. أنا بخير عنوانى . . انقطعت صلتهما منذ .. آه ..

«يا ولدى كبرت وستتركنى يوماً» .

كان فى الثالثة عشرة .

«أريد سنداً يصون شيخوختى» .

هرب .. فى نفسه أراد أن يشغل أباه عن الزواج ، فقط يشغله . لم يع الفتى الصغير أن السنين ، اللص الأكبر فى هذا العالم ، كانت مخبأة خلف ثقب يوم هروبه . انفتح فانطلقت كأفراس رهان .

«ماذا جاء بك ؟» .

قال خاله .

«تزوج أبى أمس» .

«لم يجف دم أمك بعد» .

صرخت زوجة خاله .

«لم يمض على موتها أسبوع» .

نام .

«نعيده فى الصباح» .

«يبقى أسبوعاً إذا لم يأت أبوه أعدناه» .

ركض خلف الأسبوع ، شهر لحق بالشهر ، عام أمسكت فى ذيله الخيول . صارت عشرين ..

لحظات نادرة تلك التى تتسع فيها داخل الإنسان موجات حنين صادق . اتسعت به الحجرة فى واحدة منها ، وتلألأ نورها وبكى . كل شئ من بين يديه تسرب ، ومن أمام عينيه جرى . جفف دموعه وهو يلعن الممثلين الأشرار والمتفرجين العميان . أى جبار هو هذا الزمان المصرى ، الذى جعل القلوب الصغيرة والكبيرة صلدة ، صدئة كقلاع الأجداد من العرب والفراعنة . المصريون الذين عُرفوا بالحنين والعويل ، المطرقون دائماً إلى الأرض فى جلال ، يخرج من بينهم أب وابن ، لا يسأل أحدهما عن

الآخر، عشرين عاماً فى هذا الزمان . وابتسم بعد أن كتب الخطاب . لقد لازمه طوال السنين الماضية يقين عجيب بأن أباه أبدى العمر . مخلوق ليرى يوم القيامة ، وربما يساعد الملائكة فى جمع عظام الموتى أجمعين . لكن الأب فيما بدا عاش فقط ليسمع عن ابنه شيئاً . سمع فانسحقت الفرصة فى أن يراه . ربما لم يشأ ، أو لأن للعيون على العيون عتاباً لا تحتمله القلوب .

استقبل فؤاد البرقية التى تعلنه بموت أبيه رداً على خطابه فأيقن أن ما يقال عن النفوس الطيبة حق . تلك التى تتمسك بالحياة طويلاً لتحقق أمنية بسيطة كأن تطمئن على حبيب . جميلاً كان حزنه بعد أن مزق البرقية مثل إحساسه الذى لم يفارقه سنوات ، بالعدم . ذلك الزورق اللين السابح فى نهر زئبقى لامع ، ينحدر متسللاً دون أن يشعر راكبه ، إلى قرار ملئ بصوت الريح . ولم يكن فى اليوم متسع . لا يجب أن يكون لحزنه جمال من أى مصدر . فليسافر إلى المدينة التى لا يعرف الآن طعم هوائها ، ولون فضائها، التى لم ير منها طوال العشرين عاماً إلا صورة بائسة ، تتكرر فى الصحف كل شتاء ، فى يوم عاصف مطير . وتحتها التعليق الأبدى .

«الأمواج وقد ارتفعت حتى تجاوزت سور الكورنيش ، وعربة الحنطور قلبتها الرياح التى فاقت سرعتها ... إلخ»

شتاء الاسكندرية ليس هكذا أبداً . كان يقول فى السنوات الأولى بعد رحيله . غاضب لكنه جميل واسع . سحبه السوداء ضيف متعجل . فضاؤه يعشق الفضة ويحنو على ضعاف البصر . فى السنوات الأخيرة لم يقل شيئاً . لثلاث ساعات فى الديزل فكر كيف سيرى المدينة . لو كان يعرف

شعور المولود وهو خارج من الظلام ! ولأن الديزل مكيف ، لم يشعر بالهواء الذى يتدحرج كالحمام مرحباً ، ومرطباً وجوه القادمين ، قبل باب المدينة بأكثر من عشرين ميلاً . وفى «محطة مصر» أحس ببرودة خريفية منعشة . وصل مع بداية المساء .

لم يصدق أن اليوم من أيام يناير . الصورة كانت دائماً فى يناير ! . تذكر أن الاسكندرية ، تمضى معظم ليالى الشتاء ، ساهرة تحت القمر والنجوم . الدفء والأضواء يسطعان عليها من البحر ، هكذا كان يشعر وهو يركب الدراجات مع أترابه ، يتسابقون فى الليل ، مبتعدين عن جنوب المدينة حيث يعيشون ، إلى شمالها حيث الخلاء والمرح . وفى أكثر مقاهيها الخلفية ، يسهر الناس ويضحكون ، وصوت أم كلثوم العريض اللامع يسرى فى أركان الفضاء البعيدة متوحداً تأنس إليه القلوب ، والشاردون الذين يحسون جميعاً ، أنها مطربة جريحة تغنى وحدها فى دنيا خئون . ما أكثر ما سمع فى الطرقات على نواصى الأزقة ، وهو عائد فوق الدراجة طائراً يضحك على المتخلفين وراءه ، صوتا يلعن الحظ .

وحين استقل تاكسى تساءل فجأة لماذا لم يفكر فى أبيه فكاد يعود . لابد أن أباه قد دفن . قال . لقد تزوج ولابد أنجب وإلا كيف مضت السنون . إنه لا يذكر وجه أبيه نفسه .

- إلى أين ؟

قال السائق . لعله لم يُدفن بعد . فكر . لعله يراه فلا ينساه ...

وحين صار التاكسى على الشاطئ الجنوبى لترعة المحمودية ثقل الظلام. عشرون عاماً حطمت المصابيح . اهتز التاكسى كثيراً بفعل المطبات والحفر العميقة . رأى على الشاطئ تلالاً غريبةً من الأخشاب والبراميل أشد سواداً من الليل . قبل هربه كان الشاطئ خالياً إلا من عشتين لبعض اللصوص ، ومدرستين جديدتين على الجانب الآخر للطريق . أُزيلت العشتان بلا شك، فتلال الأخشاب والبراميل عالية عريضة موازية لطول الشاطئ . أما المدرستان فقد ارتفعت أكوام القمامة أمام سورهما فساوته . وحين لاحت له أضواء صفراء مزدحمة أعلنته بموت أبيه ، لم يفكر فى العودة ، وندم على ذلك فيما بعد .

«أينما تكونوا يدرككم الموت ..

توقف التاكسى وصوت المقرئ الخشن يتسرب إليه من النوافذ المغلقة .

ترك التاكسى ثم تردد فى التقدم . السرادق ممتد أمام البيوت القليلة المتجاورة فى فزع . لو فتش سيجد خطوطه عليها . لو عبرها سيدخل فى الفضاء الواسع ، الذى كان يصطاد فيه العصافير ويلعب الكرة . لو دخل حجراتها لشرب وأكل وضحك ، وذكرته أكثر من امرأة بأنه أخ لأبنائها فى الرضاعة . لو التفت خلفه سيقذف حجراً يعبر مياه المحمودية إلى الشاطئ الآخر ، كما كان يفعل متسابقاً مع أصحابه . وربما أصاب «مراكبية» مركب محملة بالقطن أو الكُسب . ومن فوق سطح منزله ستخترق ظهره أشعة أرسلتها عينا سعاد أجمل الفتيات وأول من لعب معها «العروسة والعريس» لكنه صافح ثلاثة من الرجال قاموا لاستقباله . لم يعرفهم ولم يعرفوه ما

كاد يقف متحيراً حتى أقبل نحوه عجوز يرتعش .

- عم محمود !

صوته كاد يعود إلى حلقه .

- لا حول ولا قوة إلا بالله .

هتف العجوز الذى اندفع إليه فؤاد يحتضنه . لم يكن في الموقف رجلان يتعرفان على بعضهما بعد طول فراق . ربما كان الأمر كذلك عند العجوز . فؤاد كان يشعر بالخوف . إدراك مبهم سيطر عليه بأن الجالسين فى السرادق سيقومون ويضربونه ضرباً قد يؤدى إلى موته ، لذلك كان تشبثه بأحضان الرجل غريباً .

لكن أكثر الجالسين أقبلوا يصافحونه . يعزونه والدموع تطل من أكثر من عين . والأصوات المترحمة على الميت تتداخل كأنها لغط . أفسح له المستقبلون الثلاثة مكاناً أمامهم . إنه ابن الميت الجديد بتلقى العزاء . فوق الأريكة العالية التى تتصدر السرادق كان شيخان . ختم الذى يقرأ تلاوته بسرعة .

كيف تاه أبونا آدم عن أمنا حواء سنيناً طويلة ...

تحدث ...

حكمة الله شاءت أن يلتقيا ...

اللقاء الأكبر يوم القيامة .

قال ...

قطار الدنيا هزيل .

قطار الآخرة حق .

هدد وتوعد ....

الناجون من يدركون عبر الزمان .

وفى نفسه كان فؤاد يتساءل أين إخوته من أبيه ؟ هل سيصل الخبر إلى زوجة أبيه ؟ كيف سيدور الحديث الليلة ؟ أى نوع من العتاب سيكون ؟ لكنه فارق السرادق بسرعة بعد الواقعة . بكى حقيقة حين عرف أن زوجة أبيه أنجبت ولدين ماتا خلف بعضهما فلحقت بهما منذ عام . وأن أباه أمضى العام الأخير تبلل دموعه الأرض ، وحين وصل الخطاب قرأه عليه الناس لأنه أعمى ، وأبدوا استعدادهم لاصطحابه إليه - فؤاد - بالقاهرة ، لكن أباه رفض ، وأمضى الليل يضحك والنهار ، وكانت الوصية سرادقاً يليق بمكانة ابنه الذى لابد صار شيئاً عظيماً ، ودل - أبوه - الجيران على نقود ادخرها .

كأنه كان يعرف . قال فؤاد فى نفسه وهو يتحسس المائة جنيه ، التى جمعها له زملاؤه فى المكتب ، وساهمت فيها النقابة ، وصندوق الزمالة ، وإدارة الرعاية الاجتماعية .

انتهت القصة المؤثرة بسرعة . ما كان سيحدث لو لم يأت ؟ . مط شفتيه وهو لا يدرى . تاق أن تنتهى الليلة . طالت وطالت وما انتهت إلا بدم .

قتل «دومه» حسن المعداوى فجأة . قام وتقدم ووقف أمامه وصرخ «يا عضو المجلس ...» وانطلق الدم من العنق إلى سقف السرادق كقذيفة ، فأصاب القريب والبعيد .

لقد انتظم المعزون بعد أن جلس . ارتفع صوت المقرئ الثانى «وسلك» إذ أشعلت فيه المنافسة الحماس . رأى فؤاد أكثر من سيارة مقبلة تقف جميعها بعيداً عن السرادق بمسافة قليلة ، وينزل من أولها البيضاء الطويلة ، شخص لا تتضح معالمه ، يتقدم الباقون الذين نزلوا من بقية السيارات .

لاحظ أن الذى نزل من السيارة البيضاء يظلع فى مشيته . حين اقترب عرفه فؤاد . إنه حسن المعداوى . صافحه ولم يبد أن حسن قد عرفه بدوره . لم ينتبه فؤاد إلى البدلة الأنيقة التى يرتديها حسن ، ونسى أنه نزل من سيارة طويلة بيضاء .

انشغل بمصافحة بقية الرجال . كان آخرهم «دومه» . عرفه فؤاد ولم يعرفه الآخر أيضاً . الذى أدهش فؤاد بحق ، هو أنه ما كاد ينتهى من مصافحة «دومه» آخر الرجال ، حتى التفت ليرى أكثر من كانوا جالسين واقفين ، ثم بدأوا يجلسون . ازدادت حماسة المقرئ ، ولم يستطع فؤاد أن يمنع نفسه عن ترديد بصره فيما بين حسن ، الذى كان أكثر من رجل يفسح له مكاناً ليجلس ، و"دومه" الذى جلس بعيداً . كهل «حسن» علا جسمه شحم لم يكن أحد ممن عرفوه قديماً يتوقعه . ولا يتوقع البدلة السوداء الأنيقة، التى تحتها صديرى أسود ، وقميص أبيض لامع ، ورباط عنق أسود. كان دائماً حافياً ، ممزق الثياب ، مجدور الوجه ضيق العينين ، الآن

يبدو ناضراً بهناء عجيب ."دومه" ما يزال عريضاً لكنه صار ناتئ العظام . حين مال كل من حسن و"دومه" يحدث أحد الجالسين ، أدرك أنهما يسألان عنه . وسط التلاوة قام "دومه" ، وتقدم إلى فؤاد يصافحه مرة أخرى ويحتضنه . يعزيه ويرحب به فى بيته القديم ، ثم ابتسم .

هكذا كان . فتى غير عادى ، وجهه المستدير سمين بغير ترهل . أنفه أفطس . عيناه مدفونتان . شفتاه غليظتان . مربع الجسد وطويل . لا يعرف أحد من أين اكتسب اسمه الغريب الذى اشتهر به . قالوا دائماً أن جسمه القوى ، لا يناسب عمره الصغير ، إنما هو نتيجة للضرب غير المعقول الذى يلقاه دائماً فى البيت والمدرسة وأقسام البوليس . كان صبياً لم يبلغ السادسة عشرة ويستطيع هزيمة عشرة رجال . لم يره أحد إلا فى مشاجرة أو عبث ، أو جالساً يحكى حكاية المخبر الذى أغمى عليه ، من فرط ضربه فيه – فى "دومه" – . لكن أهل الحى لم يخشوه . لم يكن يسرقهم أو يؤذيهم . يدافع عنهم إذا اقتضى الحال .

حسن لم يفعل مثل "دومه" . بعد أن همس إليه من يجاوره ، عاد برأسه واستند بظهره إلى المقعد . قال شيئاً بالتأكيد لأن فؤاد رأى شفتيه تتحركان . آثار الوضع الغريب لكل من حسن ودومة فضول فؤاد . حسن الذى أراد قتل "دومه" منذ عشرين عاماً ، يتقدم وخلفه رجال . "دومه" القوى الجسور يتراجع إلى الذيل . كانا معاً يعملان فوق «المعدية» القريبة التى تنقل الناس بين شاطئ ترعة المحمودية . لا يعرف فؤاد ما إذا كانت لا تزال موجودة أم لا . الله الذى لا يعرف أحد كيف تمضى مشيئته ، كثيراً ما يضع سره فى

أضعف خلقه . حسن كـان أضعف الخلق ونجح فى بقر بطن "دومه" بسكين من أجل «وردة» . كـــان غـريمه فـى حب بائس . هكذا تـردد فى الحى . لم يعرف أحد أن فؤاد كان يمضى معـها نهاراً عريضاً فى الليل الضيق . ربما لا يعرف أحـد أنه ذهب إلى السرادق الذى أقامـه «عم سمسم» ليـتلقى العزاء فى ابنته ، أجمل مخلوقات الأرض .

«حضور الأطفال للمآتم فأل سيئ»

قال أبوه الذى يتقبل - فؤاد - فيه العزاء الآن .

صدقت أمه على الكلام .

ذهب ولم يقل لأحد .

"دومه" وحسن كانا صامـتين شاخصين إلى الأرض . كل منهما لا يكاد يستقر فى جلسته . حسن كـان ينكش فى الرمل المفروش بخيزرانه "رفيعة" وكثيراً ما يضرب الأرض بقدميه ويزفر . انصرف "دومه" وسط القراءة ولم يصـافح أحـداً . انصـرف حـسن بعـده . فـؤاد بعـد القـراءة . بالقـرب من «المعـدية» تقـدم خـائفـاً وهو يسـمع الأنين المتـحشـرج ، الصـادر من عند الشاطئ. وجد "دومه" غارقاً فى الدم .

ظل فؤاد يـنظر إلى "دومه" مـرة وإلى حسن مـرة . رآهما متـوترين . لم يفكر أن الليلة تشبه البارحة كما يقال . مختلف وضعهما الآن . لا يمكن أن توجد بينها إمرأة . لا توجد امرأة مـثل وردة التى لابد قد عرفاها أفضل منه . كان صغيراً لكن ليس كل مايراه الصغير تمحوه الأيام ...

فجأة تحط البلاهة فوق الوجوه . الأعرج فى دكانته لا يشترى ولا يبيع . اتهم فى حادث لواط مع صبى ، فتحول الكون كله إلى ضمير متعنت . دكانة جادو مكتظة بالجالسين للغداء من عمال شركة الملح والصودا . دكانة السيد البرعى كذلك . ليس من بين الجالسين من يفكر وقت الجوع هذا فى الجنة . متعبون . ولا فى عرائس البحر . صفر الوجوه غائرو العيون ، مشدودون إلى الوراء . لو سألتهم عما يشغلهم ، لقالوا هل حقاً ستقوم القيامة يوم الثلاثاء كما قال المنجم الهندى ؟ ولاستمروا فى الطعام . سينساهم الله وليس هناك أسعد ممن تقوم القيامة وهو جالس يأكل فى دكانة . لكن وردة تخطر قادمة من ناحية «المعدية» . حافية كعادتها ترتدى جلبابها المورد بالأخضر . القصير الكاشف عن ربلتى ساقيها اللدنتين . تمسك وردة دائماً بالجلباب عند جانب فخذها اليسرى ، وتثنيه خلفها فيضيق على الردفين والفخذين يجسدها . تلمع ذراعاها العاريتان تحت ضوء الشمس التى لا يعرف أحد أن أشعتها ترتد إليها منعكسة على اللحم المخملى البارق . لا يدرك هذا إلا الشمس . من طوق الجلباب الواسع يواجه نحر وردة المنحوت، الدنيا بقاعدة مستديرة من النور الخاطف ، يطل من بينها لسان عصفور جرئ تحاصره كرتان صغيرتان خطرتان قلقتان . ويحمل النحر قمراً ظنه الناس يهجع بالنهار فى بلاد العفاريت .

لكن ليس للقمر فم وردة . كرزة فوق كرزة استوت إذا افتر ثغرهما كشف عن لؤلؤ جهله الغواصون ردهم الجوع إلى الأحلام ، تتبدد مع الصباح المسرع فى بلاهة ، كأنما يريده حقاً أحد . فوق الكرزة العليا ينام

الأنف الصغير الساخر تحرسه العينان يطل منهما النهار والليل فى يوم عجيب . يوم تنساه دائماً لأنك تراه كل يوم فتشعر كأنه أول مرة إذا تعاقب فلا تكون بلادة ولا ملل . يلمع فوق الجميع يتعاقب الجبين بضوء مبهر ، يغطيه الشعر الليلى الثقيل الذى تترك خصلة منه تلمع ظاهرة تحت رباط رأس مغرٍ بمبى تتدلى من محيطه كرات صغيرة خضراء مدندشة بالترتر الأبيض الصقيل يبعثر أنوار النهار الخائب فيرهقها وهو يلقى بها على الأرض ، مترجرجة كبقع الزئبق فى كل ناحية . «الرحمة يا أرحم الراحمين!» .

لكنها تتهادى متأودة بتلقائية مقصودة . سكون يحط على الدكانتين وغيظ . تغوص بين لحم الجالسين فى دكانة جادو قاصدة فترينة الحلوى . من صدرها تخرج قرشاً تلقيه فى خفة على البنك أمام عم جادو الذى يخبئ سيفاً أثرياً يشرعه حين يتشاجر مع السيد البرعى منافسه على اجتذاب الزبائن ، وحين يريد قطع ساق قطة !

«كم قطاً قطعتَ ساقه يا عجوز ؟» .

تقول بلا خجل .

«اللبؤة» .

يضيق صدر العجوز الذى جعل قطط الحى كلها تعرج . تكون قد تركت الجلباب ، فيعود منزلقاً إلى وضعه الطبيعى . من الحلوى قطعتين تأخذ . تنفلت عائدة فى ركبها النار والإحباط . تعود تضم جانب الجلباب ،

تبتسم مدركة أن الشمس التى فوقها تبحث عن ليل . تبتعد . تقترب الأحلام وتثقل .

أى ديدان الأرض كم أنت لبؤة ؟

ما الذى يقوله الشيخ عن العظة فى الموت ، والعبرة فى الحياة . هل حقاً أكلت النار الجسد المضئ ؟ . لماذا يتذكر فؤاد ذلك الآن ؟ ما فائدته ؟ . لعله يذكر أيضاً كيف كان يلعب الكرة كالزنبرك ، ويصرخ الأطفال هاتفين مشجعين . لا يرى وجهاً من وجوه أصحابه . كبروا مثله بلا شك . مات من مات على الحدود الشرقية . الباقون أحبوا فأخفقوا فانتحروا ، أو نجحوا فى السفر إلى بلاد النفط فتزوجوا ورحلوا . لم يبق من «الزمان الأول» غير العجوز الذى تعرف عليه ، و"دومه" ، وحسن .

يرى - فؤاد - "دومه" يبتسم رغم القلق البادى على وجهه . يكاد يبتسم هو أيضاً فيدرك أن ماحوله يخصه . لا يعرف أن حسن المعداوى ينظر إليه بين الحين والحين ويكاد ينفجر . ما يبدو عليه من قلق لا يليق به وهو عضو المجلس المحلى للمدينة عن الحى ! ، الذى يهيئ نفسه لعضوية مجلس الشعب للدولة عن الدائرة . لا يجب أن يفقد أعصابه أبداً أمام مخلوق أقل منه فيتساوى معه ، أو أكبر منه فيخسر ثقته . قاعدة موزونة استنها لنفسه وهو فى السجن ، الذى قرر أن يخرج منه ليحكم . فؤاد هذا هوالذى أنقذ "دومه" فلم يمت واعترف فقبض عليه - حسن - ليقضى ثلاثة أعوام . لا طه فى العام الأول ثلاثة رجال كانوا معه فى الزنزانة . مائة مرة .

«الدور دائر» .

لم يستطع . كانوا كرماء فشجعوه . لم يستطع

«انهق كحمار» .

قال لأحدهم . ضحكوا بهستيرية وضربوه بالأقدام على قفاه .

«الدور دائر» .

لم يستطع . شجعوه كثيراً . لم يستطع .

«خر كبقرة»

هتف متوسلاً . اشبعوه ركلاً . بعد النزيف والجرح ذى الألم الفظيع ، نقلته إدارة السجن إلى زنزانة أخرى بها مسجونون طيبون . !

«لماذا انتظرت كل هذا الوقت » !؟ .

صفعه الصول على قفاه . أمضى شهوراً لا يستطيع الجلوس معتدلاً .

فى كل مرة حاول الجلوس فشل ، أحصى العدد الجهنمى . ثلاثة فى مائة تعنى ثلاث مئات . وفى عام واحد . التاع شقاءً وألماً وانسحاقاً . خرج وانتظر خروجهم فخذلوه . مات أحدهم وقتل الثالث الثانى ، فأخذ حكماً جديداً ، ولعله مات الآن . لم تفارقه عادة الخوف من الجلوس على مقعد بعد شفائه . وقت الفسحة - فى السجن - كان أبشع الأزمنة ، خاصة حين تستضيف إدارة السجن غريبة السلوك ، بعض الفرق الرياضية من الشركات، لتلعب مع الرياضيين من المسجونين . تخرج الإدارة على النظام، ويصف المسجونون المقاعد حول الملعب ليجلس فوقها المسئولون والمسجونون الكبار . لم يحاول أن يجلس . كان يدور حول الملعب متألماً

كثور . شفى لكنه يتألم للجالسين جميعاً ! .

بعد أعوام قليلة من خروجه تخلص من هذا الرعب المقزز . سأل نفسه السؤال العبقرى . كيف ستثق فى نفسك أمام المسئولين الكبار ، ممن تزمع الجلوس معهم فى المستقبل القريب ؟ . الجلوس باتزان أول مظاهر الثقة بالنفس . ماذا يقلقه الآن إذن و"دومه" مجرد حشرة من أتباعه سينتهى منها الليلة . قملة سيسحقها . إنه - حسن - ليدرك أن الحاضر والغائب ، يعرف أصله وفصله ، ولا يجرؤ على التفكير فيه أو ذكره حتى لنفسه فى خلوة مظلمة . آه . ما كان يجب أن يأتى الليلة حقاً . لماذا ؟ . لا يعرف . لا يستطيع أن يتخلص من ضيقه المفاجئ . لكن متى يتخلى العضو البارز بالمجلس المحلى ، الذى يعد نفسه للعضوية الكبرى عن الحضور إلى أى مناسبة .

لقد صرح فى الصباح ، أنه سيحضر العزاء فى الفقيد الذى لا أهل له ولا ولد . فهو - حسن - أب للجميع «سيصبح بمشيئة الله الواحد الأحد أبا للدائرة» . قال هذه لنفسه . اعتذر عن عدم الحضور لموكب الجنازة لانشغاله باجتماع المجلس . أنه أب للجميع حقاً . فالمشروع الذى تقدم به اليوم دليله . بناء قرية لليتامى على الطرف الجنوبى للمدينة . مقلب الزبالة الضخم الذى تخرج منه الديدان اللولبية ، والفئران القذرة تهاجم البيوت الجميلة ، سيحرق نهائياً . الملجأ العظيم مكان المقلب ! . أنه لا يخجل من القول بأنه ولد يتيماً . لا يقول أن عم سمسم وجده ملفوفاً فى خروق قديمة فوق شاطئ ترعة المحمودية ، فأخذه ورباه وقال ولد يعيننى . لو قال

سيصدقون على كلامه ظناً أن هذا يبهجه . ألا يقوله ؟ . حسن يعرف عجينة الجبن ، وحماقة النفاق فى بعض الأحيان . ورغم أنهم يعرفون ذلك دون أن يقوله ، فهم يقولون أنه يتيم كما يقول ! . لقد صرح أن القرية لن تكون ليتامى الحى . أهل الحى كرام ليس بينهم يتيم واحد ، وهو يفخر بهم ، ويزهو على ممثلى الأحياء الأخرى كثيرة اليتامى والمتسولين . لكن الاقتصار فى العمل على حى واحد أنانية . فالمدينة الكبيرة أمُّ الحى الصغير . من يذهب إلى ميادينها سيصطدم بعشرات من الأيتام يمسحون الأحذية وهم حفاة . يبيعون الكبريت . يسرقون . لا يستحمون فيعلوهم قشف كالصدأ . يتبرزون فى الطرقات فيشوهون جمال كل شئ .

يتشاجرون فيقطعون وجوه بعضهم بالأمواس . هؤلاء لابد من جمعهم «إذا علمناهم ونظفناهم وأطعمناهم وكسوناهم نستطيع أن نبيعهم للأثرياء العرب» . لم يقل هذه فى الاجتماع . رئيس المجلس لا يجب أن يعلم شيئاً عن صلاته الكبرى الآن .

عليه - الرئيس - فقط تسهيل توفير الأسمنت والأخشاب والحديد وسائر مواد البناء . والمشروع الكبير لن يستغرق تنفيذه أكثر من عام . مطلوب حجرات متجاورة أنيقة ، دورات مياه "أَنْيَقْ" . ملاعب كثيرة واسعة خضراء . بعد ذلك إعلان عن الموظفات . مربيات فاضلات مطلقات وأرامل محرومات من الحب يتدفقن حباً على الأيتام .

يعرف حسن على نحو مفاجئ ، أن لقلقه مصدراً آخر . لم يكن رئيس المجلس واضحاً . أبدى مخاوف حمقاء ، من أن يقدم تسهيلات ، ولا

يستطيع حسن إتمام المشروع . الرئيس الأريب ذو الأنف الطويل القوى يتحسس طريقاً وسط الدخان . لكن حسن لم يعطه الفرصة . إن لم يساعده رئيس الحى سيقوم هو بالمشروع وحده . سيعلن فى كل مكان أن رئيس الحى لم يوافق على أعظم مشروع إنسانى . أجل . هكذا هدد . الرئيس الذى أطلق أنفه أغلقه ، ووعد بالموافقة . ليس ذلك مصدر القلق إذاً.

يضيق صدره . العضو البارز الذى خرج من السجن بشهادة حُسن سير وسلوك ، ليعمل فى بوفيه شركة الغزل ، ثم ساعياً لمكتب سكرتير رئيس مجلس الإدارة ، وسرعان ما ترك العمل وافتتح كشكاً على شاطئ المحمودية باع فيه السجائر والقصب ، وما لبث أن اشترى عربة نقل بمقطورة ، فخطا خطوة أكبر إذ صار بعد سنوات معدودة ، صاحب أكبر أسطول نقل فى المدينة ، ولديه أكبر «زريبة» لتسمين البهائم ، وأول مزرعة سمكية على الأرض الخراب خلف الحى ، ينافس بها بحيرة مريوط التى بدأت تجف ، والبحر الأبيض المتوسط الذى تراجعت أسماكه بعد انقطاع طمى النيل . هذا العضو البارز يضيق صدره !

يجب أن ينهض الآن ويجلس مع نفسه . ليس فؤاد مصدر الضيق . لو أراد حسن يقتله الليلة ، ويلقى بجثته فى الترعة لتتعفن وتنتفخ فتعيش داخلها القراميط !

يكاد ينهض لولا أنه بحدس عبقرى ، يدرك أن المقرئ لم ينته .

- هذا «نص» قرآن ! . ربع القرآن لا يكون طويلاً هكذا ! .

يهمس إلى من يجاوره . يرفع وجهه ناظراً إلى فؤاد لا يقصد هذه المرة . تلتقى العيون مصادفة . يحول فؤاذ عينيه مرتبكاً . ما كان عليه أن ينظر كثيراً إلى حسن . لو أراد أن يـعرف فلديه فرصـة فيمـا بعد . لكن هذا مـا حدث على أى حال .

يكاد حـسن أن يحول عـينيه ، لولا أنه يتـذكر مـا كابده ليـصبح عـضو المجلس ، وآماله فى العضوية الأكبـر ، وطموحه الذى لا يحد ، فيظل ثابت النظر لدقـيقـة ، يتراجع بعـدها إلى الخلف بظهـره . كان منكفـئاً قليـلاً إلى الأمـام وهذا خطأ كبير . يضم طرفى الجـاكت «وخلقنا الإنســان فى كبـد» يسمع المقرئ . يفكر أن يعلبه مع الأسـماك ، فى مصنع التعليب الذى شرع فى بنائه جـوار المزرعـة السـمكية . لماذا ؟ . مـن قبل قـال «كل نفس ذائقـة الموت» ولم يقل لماذا تسبق نفس نفـساً ؟ . إنه لاينسى . كـاد ينهض قافـزاً برأسه فى صـدر المقرئ تلك الليلة البـعيـدة . ظل يتسائل كـارهاً ، وينكش بخيـزرانته فى الأرض . نسى ذلك حـقاً ، وأمحت تلك اليـلة من الوجود ، لكن هذا الفـؤاد الطويل الأحمق ، جـاء فـأحـيا كل شئ . أجل ياحـسن لا تخدع نفسك . لا أحد ممن حولك ، بمن فـيهم "دومه" ، كان يذكِّرك بشئ . لكن هذا الطويل التـافه ذا الوجه المسـتطيل والفم القانت ، يجـعل السرادق ينخلع من حولك ، يحط مكانه الـسرادق القديم ، حتى لترى عـم سمسم ، الطويل الرفيع غـائر العينين الضيـقتين ، ذا الجلبـاب الأجرب ، الذى يمشى مطرقاً يبحث عن قرش سقط سهواً من أحد ، رغم غناه الفاحش .

يحاول حـسن أن يفر من تدافع الذكـريات فيفـشل . يريد هواءً بارداً ،

فشمس صيف لعينة مختبئة فى سرواله ولايدرى !.

أيها المقرئ التعس . أيها المجلس التعس . هذا عضوك مرتخ ، مستسلم لماض بشع يكبس على روحه ، بعد أن ظن أنه قبره فى قاع أشد ظلاماً من قاع الترعة . لكن ما معنى اللوم الآن ؟

يتخدر مستسلماً بعد أن كاد يصرخ متسائلاً . يبذل قوة جبارة كى لا ترتعش ساقاه فيفهم أحد شيئاً . لماذا خذل وردة ؟ لو كان ما نوته ما خذلها. خائب خائب خائب رغم الكذب العظيم !

تقف فى بئر المعدية تقضم الحلوى وتبتسم ، وفوق وبين أسنانها البيضاء ذرات الدقيق الصفراء ، بينما تنظر إليه بعينيها المتسعتين بالمصارحة ، فيجذب السلك بقوة كأنه يهرب ، فيحاصره تعاقب الشاطئين ، والبئر الضيقة ومسافة الشبر بينهما ، فى الوقت الذى يحرق يديه السلك الرفيع المتوتر الممتد بين الشاطئين ، ووسط الحلقات المعدنية المثبتة فى طرفى المعدية، والذى إذا جذبه إلى ناحية تهادت المعدية إلى الأخرى ، فهو لا يدرى بأنه لم يمسك بقطعة القماش القديم ، التى يجب أن تكون تحت كفيه وفوق السلك ، بينما هى تضحك ، فيتذكر كم داست قدماه فوق قدميها، وأصابعه فوق أصابعها وهى تساعده فى ارخاء السلك أسفل الماء حين تعبر سفينة ، أو شده من جديد بعد العبور ، لينتفخ صدرها عالياً فوق علوه الذى يجذب صدور الرجال للانحناء وتضحك فيمتلئ الفضاء بالحمى ، وتكاد مياه المحمودية ترتفع مغرقة الشاطئين وتندى السماء بعرق ، فتهبط فيه الروح إلى حسرة القاع المتخاذل ، إذ تكفيه آخر الليل بقرة عم سمسم أو

حمارته ، اللتان عـهد بهما إليه ، يرعاهما جوار عـمله بالنهار ، وابتنى لهما كشكاً على الشاطئ ، لينام فيه معهما وقت القيلولة ، أو أى وقت تسمح به له وردة ، كما ينام مـعهما ومع بقـية البهائم بالليل فى الزريبـة الكبيرة التى يمتلكها عم سمسم ، الذى يقـول دائماً أنه - حسن - راع أمين للبهيم ، ولا يعرف ذلك حـتى الآن إلا "دومه" اللعين الأحمق . يدرك حسن الحـسد فى عيـون الناس فيـتحـداهـم بالموافقة الـكاذبة ، قائلاً أنهـا - وردة - لا تعشق غيره. وتصعـد الوردة الرائعة من البئر إلى سطح المعدية ، فيـنحسر الجلباب عن الفخذ المتماسك ، له صوت النيران المشتعلة ، وهو يلمع طرياً حين تقفز إلى الشاطئ الآخـر لتحـضر الحلوى فتـهتز ردفـاها بالدعوة الغـجرية ذات الجرس الغامض ، فيهتز السلك فى يده ، ويتـوتر منتظراً عودتها ، متمنياً أن تموت سائلاً عن البذرة الشـيطانية داخله ، التى ضيّقت عليه الدنيا فـجعلتها ليلاً مكحلاً ، وإست بقرة أو حـمارة متدل ، بينما الشـاطئ المفـتوح أمامه لا يرقاه ،والمسافة إيماءة عين ، إذ ما أكثر ما طلبت منه أن يضع فى صدرها يده السوداء الناشفـة التي صارت سمينه الآن ، حمراء وربما خضـراء فهو ينظر إليها فيجدها كثيرة الألوان ! .

«أخرج بُكْ نقودى» .

تقول وتضحك فيهتز الهـواء ويضع يده تقابلها نار فترتد ، لكنه يتشجع ويخون نفـسه ، فيمـسك بحلمة ثديهـا المتماسـكة كحـبة الفول ، فـتجلجل ضحكتها طاردة الهواء الذى يتجمع مذعوراً راقصاً على وجهه ، فيحس بها وهى تدفع يده عنها تستبقيها ، ويرتعد ، فيفشل .

هل ينسى ؟

يسبح فى بحار النشوة ثم يعبئه الخوف من جديد فيلوذ بشاطئه العجيب. حتى يغيب "دومه" يوماً عن العمل بالمساء ، وتكون ترعة المحمودية خالية من بقع الزيت ونبات الياسنت ، والجو مرطب ، فيعلم أن الليلة نهايته ، حين تضيق عليه فتحة البئر ليضمها مبتهجاً كالأبله ، فتستريح بين الألواح الخشبية اللزجة الرطبة لقاع المعدية ، ويرفع جلبابها ويرتعد فيفشل. وكأنه ولىّ ، تزعق الحمارة فتصفعه وردة صفعة تولع صدغة بسعير النذالة إذ تندفع معها بصقة ما يزال يحسها . لا يجب أن يرفع يده إلى وجهه . هذا سرادق آخر وهو فيه الوردة ! . لكن الركلة فى احشائه بالركبة الطرية ، كانت تعجز عنها بغلة حرون ، فيقفز إلى الشاطئ ، وتقفز خلفه حاملة سيخاً حديدياً بين يديها ، لا يعرف من أين أتت به .

«يا كلب يابن الكلب» .

يخرج حسن منديله المعطر ، ثم يعيده متجاهلاً العرق الذى يقفز على جبهته وصدغيه . ما يزال يسمع صوتها وهو يجرى كالقطار القديم الأسود، هو الذى يظلع فى مشيته . كم دفع للأطباء ليجدوا له علاجاً لهذه الساق العاقة بلا فائدة ؟ يفكر أن يبنى مستشفى ويأتى بهم ليعملوا فيه فوقتها فقط سيعالجونه ، ويستبعد السفر إلى الخارج ، فهو ما يزال غير راسخ الأعمال . يؤجل المستشفى إلى حين فوزه بالعضوية الكبرى ، ثم يؤجله نهائياً ، فوقتها سيسافر مطمئناً على أعماله .

الحمارة تسرع فتبدو جارية بالعرض لأن سرعته التى هى أقل من سرعة

الحمارة بدت أكبر ، وبدت الحمارة عائقاً فيقفز فى الترعة ، ويسمع الآن صوت الماء حين سقط فيه . ماذا كان يحدث لو لم يقفز تلك الليلة ؟ ماذا لو قتله ؟ .

لقيط التقطه عم سمسم ، يمكن تشويه جثته وإلقاؤها فى ترعة المحمودية التى تحمل الجثث كل يوم .

لا ينسى كيف أختفى أياماً وعاد ليجدها تتحدث عن "دومه" . يقول لنفسه. أتراه ما يزال غريمك وأنت تجهل ؟ .

ستمزقه الليلة . ألا تشعر أن السرادق صار صامتاً ؟ انصرف بعض الناس وأتى آخرون ، وهاهم يقبلون عليك ليصافحوك بعد أن صافحوا ابن... الميت . أنه ابن الميت حقاً لكنك عضو المجلس الـ .. حى آه . لماذا لم تقم وتنفذ بجلدك . أتظن حقاً أنها كانت تحبك ؟

ما يكاد ينهض حتى يقابله أربعة رجال بينما يقف الجالسون جميعاً تقريباً .

- حسن بك والد الجميع لابد أن يتقبل العزاء مع ابن المرحوم .

يقول سليط من بين الرجال الأربعة . يضيق الحذاء على قدمى حسن بشكل خانق ، ولا يستطيع التراجع . يلاحظ "دومه" أن حسن صار يعرج بطريقة ملفته للنظر . يدور رجل بالقهوة السادة ، يجلس حسن جوار فؤاد الذى يرتبك قليلاً ، ثم يفسح لحسن مكان الصدارة .

- إنك الابن الوحيد .

يعتذر حسن بلباقة ، وإن أحس ببعض الاضطراب . ينتظم المعزون ويبدأ المقرئ فى التلاوة . يلاحظ حسن أن "دومه" صار أكثر ابتهاجاً فجأة . يقترب برأسه من حسن وهو يفكر هل يقول «عم حسن» باعتبار السن أو «أستاذ حسن» أم «حسن بك» . قبل أن يستقر ينطق .

- لعلك تذكرني .

المفاجأة هائلة ، لكن حسن لا يرد . يكتفى بأن يربت على ركبة فؤاد القريبة . مواساة !؟ . لا يفهم فؤاد . يدرك أن الحيرة بانت على وجهه إذ يرى "دومه" ينظر إليه بابتسامة واسعة .

- أنت فؤاد ...

يتكلم حسن .

- ذاكرتى قوية . لكنك ..

يصمت قليلاً .

-شبت قبل الأوان ..

هكذا كأنه يتكلم وحده ، وبتوقيع مقصود ، وإن لم يفهم فؤاد ، الذى يقول .

- عشرون عاماً تفعل الكثير .

لم يقصد فؤاد شيئاً . قال جملته كتعليق لا معنى له لكن حسن يرد بفخر واضح .

- صحيح .

ويربت على ركبة فؤاد مرة أخرى . يتحشرج الشيخ . يسعل أكثر من مرة . يعطس . يستغفر الله . يشرب جرعة ماء . يعاود القراءة . "دومه" ما يزال يركز عينيه على فؤاد مرة ، ثم على حسن أكثر من مرة . لا يدرك فؤاد، وربما لا أحد أيضاً ، أن القلق والابتسامة سينتهيان بنافورة دم . بالضحكة الهستيرية الصاخبة ، والفم المفتوح كجهنم . لحظة كانت أقصر من «الخضة»! صرخ فيها "دومه" «يا نذل» «يا نجس» . وكانت السكين العريضة الصقيلة قد ارتفعت عاكسة أضواء المصابيح ، فأضاءت الليل أكثر وسرى برقها فكان له خيال ساطع ، رآه فؤاد يتحرك كالشهاب على جدران المنازل القريبة ، قبل أن يرى السكين .

انتهى الأمر ، وظل الخيال يتراقص مسرعاً من كل الجهات أمام فؤاد الذى انسحب متسللاً ، ناسياً كل شئ حتى ذهوله !.

- لا تقتلوه .

- غطوا الرأس .

- لا يتحرك أحد قبل البوليس .

لكنه كان قد ابتعد قليلاً ، فحث الخطى كأرنب . فاجأه خمسة شبان . صار أمام الدكاكين الثلاثة القديمة ولا يدرى . لقد خرجوا منها .

- قتل "دومه" حسن المعداوى .

هتف ، فصرخ أحدهم .

- حسن بك . !؟

وتركوه مسرعين إلى السرادق . فكر على نحو مباغت أنه لم يرهم من قبل ، وأنهم لم يعرفوه . نظر دون أن يدرى فوجد الدكاكين الثلاثة خالية ، لكن النور فيها شديد لامع ، يمتد ليكشفه وسط الشارع . أسرع متجاوزاً المكان منحرفاً إلى الترعة حيث مكان المعدية القديم .

كان بناء كبير مظلم أقيم حديثاً يحجب مساحة كبيرة من الشارع عن موقع المعدية . وقف خلف البناء مقرراً إذا لم يجد المعدية لا يبرح مكانه حتى ينتهى الموقف كله وينصرف الجميع ، ولو ظل واقفاً حتى الصباح ! كان خائفاً بحق كأنه القاتل أو الدافع عليه . أى عبث ينتظم الأشياء ؟ كل ذلك لأنه أرسل خطاباً . لأنه أراد أن يصل وداً منسياً . لكنه أمسك نفسه متلبساً بالابتسام . فصل "دومه" الرأس عن الجسد

«أضعف خلقه صار أعظمهم !» .

«أعظم خلقه صار أضعفهم !» .

«أضعفهم قتل أعظمهم !!» .

نكتة بالتأكيد ! . ربما استعبد حسن "دومه" كثيراً . من بين الأتباع كان "دومه" أضعفهم بنية ، وأشحبهم وجهاً . بدا وهو يبتسم حطام إنسان . لكن الابتسامة كانت خدعة . خرجت السكين من سرواله ، طويلة عريضة تحصد أعمدة النور . لابد اختار التوقيت من قبل . تجلى المقرئ على نحو مباغت . تابعه المعزون بانجذاب غامر . ارتفعت أصواتهم طربة . الله يفتح عليك .

وترحـمـوا على المرحـوم . لـم يكف "دومـه" عن الابتـسام نظـر كثـيـراً إلى الأرض. ربما تردد . القتل ليس حاجة يقضيها الإنسان كل يوم ...

لـم يشـأ فؤاد أن يسـتـرسل فى الاسـتـرجاع . تـباعـدت أصوات الهـرج الأخير ، وتداخل فـيها الصوت الرقـيق لتموجات الماء وهـسـيس الحشائش يعلن عن استـجابة طرية لنسـمة رطبة . نظر إلـى الشاطئ الآخر فـوجدها . المعـدية . مسـتريحـة . خلفهـا الترام مـضيـئة على الطريق المحـاذى لتـرعة المحمودية من الجهة الأخرى كما كان يراها فى الزمن القديم . الظلام حول الترام دثار واسع . التـرام المضيـئة خفـقة قلب حزين . يريـد أن تأتى المعدية بأسرع مـا يمكن . لايبدو أن أحداً بهـا . كانت وردة هى التى تسهـر . كانت تحب ليل الشـتاء والصـيف . ليس هناك من صـفيـر هادئ ولا يد بيضـاء . خاليـة المعدية فيـما يبدو منسـية ، وسيـقف حتى الصبـاح . هل يترك مكانه ويسير حـتى الكوبرى ؟ سيرونه . يسمع صـوت سيارة مسرعـة فينكمش . أتباع حـسن بالتأكيـد يسرعون لاسـتدعاء البـوليس . يتراجع مـستنداً على جـدار المبنى الرطب الخـشن . صـدره ينتفض . المشـهـد يعـود يكبس على روحـه. لابد أن ثيابه تلـوثت بالدم . لقد جـذب "دومـه" حسن إلى الأمـام مسـافة كـبيرة فى لمحـة ، وصرخ مطيـراً الرأس ، فقفـز هو - فؤاد - بعـيداً مرعـوباً ، لا دم إذن . اكتشـف أنه يفكر كما لو كـان مجـرماً بحق . رفض الفكرة بعزم . تطلع إلى المعدية آملاً فوجـدها تتحرك . لم يستطع أن يميز بها أحداً ... ليلة عجيبة . هل تسيـر المعدية وحدها ؟ هل خرج من المذبحة وليا يتحرك له الجـماد ؟ . أم هى الألفة القديمة تحرك الحـجر ؟ لعله عمى . لكنه

يرى الترام . لابد أن بالمعدية أحداً . ربما شخص قصير يختفى معظم جسمه فى بئرها . اقـتربت المعدية أكثـر فتنفس . ها هو قد اقتـرب من الفرار ، وها هو يرى شخصاً كشبح .

- مساء الخير .

وصلت المعدية تحمل صوتاً خشناً .

- مساء النور .

خرجت ولم يسمعها . لا هو ولا ذو الصوت الخشن .

قفز فاهتزت المعدية تحت قدميه . نفس الاهتزاز القديم . هذه المرة أكثر . فكر وهو يبـتعـد داخلها قليـلاً . عليـه أن يتمـاسك . لا يجب أن ينظر إلى الواقف فى بئر المعدية . سـيكون بشعاً . ربما يجده حسن المعـداوى نفسه أو "دومه" . هذه ليلة فوق حدود العقل . لـقد تحدثت الصحف أمس عن قاتل عاد إلى منزله فوجد «القتيل» يتناول العشاء مع زوجته ، فأصيب بالجنون .

- الأستاذ من هنا ؟

داهمـه الرجل الذى بدا يتلكأ . السـؤال العادى الذى ربما سـأله الرجل دون عناية سبّب لفـؤاد رعباً . اللعنة على عـمل الليل . لابد أن الرجل يريد أن ينام . ماذا يقول ؟ غريب ؟ كـيف ؟ من هنا ؟ كيف ؟ . نظر مضطراً إلى الرجل فوجده أسود الوجه له كفان مفروشتان فوق السلك كأن لكل منهما عشر أصابع .

- غريب .

قـال باقتـضـاب وبلهجـة تشى بقطع الحـديث . جـذب الرجل السلك فأخذت المعدية طريقها إلى الشاطئ الآخر . لكن الرجل تثائب وهو يجذب السلك ببطء شديد كأنه سينام فوقه ، وتحدث لا مبالياً .

- أنهم يطفئون الأنوار .

ارتعد فـؤاد بحق لكنه سمع خـشخـشة صادرة من بـئر المعدية فـتجـمد مدركاً أنه لو وجد ضـوء قريب من وجهه ، لبدا مسـرح ألوان . ركز انتباهه على الخشخشة للحظة لم تطل .

- لا مؤاخذة هات قرش أو سيجارة .

قال الرجل فسمع فؤاد «خذ قرش يا روح أمك» صادرة من بئر المعدية . نسى الرجل تماماً . صعدت نار إلى وجهه . انسكبت أنهار قديمة فى روحه . تداعت السدود هذه الليلة المشـؤمة . لابد أن الصحف صارت تأتـى بأخبار حقيقية . لكنه سـمع الكروان القديم يصدح فى الظلام فابتهج . هل لا تزال الترعـة تتسع بالنشـوة ؟ هل ما يزال فى زماننا هذا وقت يـصبح فيـه العالم أضيق من الفـرح ؟ أحس بدموعه سـتقفـز إلى ماء الترعـة التى بدأ يعلوها فجأة بخر أبيض . اهتزت المعـدية وظهر من بئرها جوار الرجل غطاء رأس أبيض فـوجـه أبيض مـسـتـدير ضـاحك فى زهو صـاخب بدعـوة العـينين اللامعتين . أنه الوجـه الصغير الحنون يهدهد ليالى الشـتاء . وها هو الصدر القوى ينتصب مع الجـسد الرائع الذى لا تقهره ظلمـة ولا ثياب . إنها ترفع وجهها إليه .

- لا سجائر من الزبائن . نقود فقط .

لم يخرج نقوداً . وقفت عيناه أمام وجهه يراهما ويرى بهما ولا يصدق. استمر الرجل يجذب السلك كسولاً ، والمعدية تتهادى متعبة . لم تمض سنوات عشرون . هذه وردة وهو مايزال صبياً . لم يحاول حسن قتل "دومه" . لم يقتل "دومه" حسن . ما مضى محض خيال . لو عاد الآن سيجد أمه وأباه . لم تمت أمه بعد موت وردة بأيام . لم يشعر بذنب لمخالفته قولها وقول أبيه عن الفأل السئ بحضور الصغار إلى المآتم . لم يدفن أبوه اليوم . لكن ... لا يجب أن يجن . لا يمكن أن ينتهى خطاب بالجنون . ما يمضى يروح ، والصحف كاذبة تنشر العفاريت . أراد أن يتكلم فلم يستطع .

- انتظر لحظة . أنى أتذكرك . أنت .. أنت .. كنت تسكن هنا .

أفاق من أفكاره مكتظاً بالأسى . ود لوكان مامضى لعبة حقاً . ألا تلعب الآلهة ؟ ولم يرد . لماذا يكون الصدق بشعاً فى بعض الأحيان ؟

- كنت أراك بالنهار ، وأحياناً بالليل . كنت تعبر بدون أجرة .

كان يدفع خمسة قروش كل شهر ويشعر بالزهو وهو لا يدفع كل يوم مع العابرين .

- أنت فّله إذن !

هل يمكن أن ينسى أحد قتلاً كالذى رآه منذ لحظات ؟ أدرك فؤاد أنه لم يعرف نفسه بعد . لم ترد . ظلت تنظر إليه واسعة العينين . كان السرادق

القديم حقيقياً ، وسرادق الليلة . طالت نظرتها إليه ، كما طالت نظرته منذ قليل إلى "دومه" غريب الأطوار ، المطرق كثيراً إلى الأرض . والذى لم يفهم فؤاد السر الحقيقى وراء إطراقه وابتسامته . ولم يعرف كيف حاول "دومه" طوال الوقت أن يمنع نفسه عن إتمام القتل فى لحظة لا يريدها ، وأنه فكر كثيراً فى قتل حسن فى الطريق ، ولكن أراد قتله وسط أكبر حشد من الناس . فكر أن ينتظر بدء انتخابات مجلس الشعب ، ليقتله وسط أكبر اجتماع فى الدائرة ، ولم يعرف متى ستتم الانتخابات . من قبل لم تراوده فكرة القتل هذه . لم يفهم كيف استطاع حسن ، بعد أعوام قليلة من خروجه من السجن ، أن يحقق هذه السطوة . لكن فى الحقيقة لم يتردد أن يكون واحداً من أتباعه حين ضاقت به السبل . كره المعدية بعد وردة . بعد شفائه من محاولة حسن لقتله عمل حمالاً فى «محطة مصر» لأكثر من عشرة أعوام . ما كاد يشفى من الانزلاق الغضروفى اللعين ، الذى أصابه فى ظهره ، حتى مات أبوه . ولسبب لا يدركه ، استبعد أن يكون غضباً إلهياً، كان عجز أمه عن الحركة فى أحد الصباحات ، ولأن قدم أخيه الأصغر مباشرة ليست «فلات» مثل قدمه هو ، مات أخوه على الحدود الغربية فى الحرب المنسية مع ليبيا ! .. أدخلته القدم الجيش على عكس قدم "دومه" التى عافته منه . تفرج "دومه" على التطور الذى يلحق بحسن كل يوم ولم يحقد . ذهب إليه فى المكتب المقام جوار مزرعة الأسماك التى يتحدث عنها الناس . ربت حسن على ظهره .

«ستعمل فى مزرعة البهائم لتكون قريباً منى» .

كان طيباً بحق .

ويمكن أن تسعد أمك» .

وأعطى "دومه" مائة جنيه تتكرر كل شهر . تعلم "دومه" من العدد القليل من الفلاحين كيف يعنى بالبهائم . ولأن حسن يحبه كما قال ، أعفاه من هذا العمل ، وخصه بتوزيع الألبان على محلات المدينة . أعطاه عربة نصف نقل، صار "دومه" يرمح بها فى الشوارع ، ويرى كيف ازدادت أعداد النساء. وبالليل بعد أن يغطى أمه لا ينقطع عن التفكير فى وردة . لا يعرف أحد حتى الآن أى عذاب يمكن أن يقاسيه إنسان يحب ميتاً . وأمس فقط قرر "دومه" أن يقتل حسن اليوم وكان يتحين اللحظة المناسبة التى قبل أن يرمش فيها أحد ، يكون هو قد أطار الرأس .

كانت ابتسامته الأولى حين عرف فؤاد ، لأنه تساءل كيف ينسى منقذه عشرين عاماً ، ويبكى قاتله ! وكانت ابتسامته التالية لأن فؤاد لن ينقذ حسن هذه المرة !

وكأنما كان كل شئ مرتباً بفعل قوة كونية . فنسيم هذه الليلة ، متفرد كنسيم الليلة القديمة . رأى "دومه" نفسه وسط السرادق القديم . حسن ينكش الأرض بخيزرانته ، و"دومه" يكاد ينهض قافزاً فى بطن عم سمسم . ينصرف ويأخذ الطريق الخطأ . يتنسم الهواء متسلل الانعاش «كان عليك أن تعبر الكوبرى» يقول لنفسه . المعدية بالليل تربط إلى الضفة الأخرى . لكن من أين القوة على الإدراك . يبكى الذى اقتلع من الأرض . لم يبق له إلا أسى ظلوم . حافى القدمين يمشى يشعر بوخزات الحصى ، وهو الذى

داست قدماه على النار . لن يرى بسمة الدنيا بعد . والليلة فى هذا السرادق المقام لأبى فؤاد ، يدرك أنه لم ير هذه البسمة حقاً طوال عشرين عاماً فيبتسم . لن يرى قطعة الحلوى فى الفم الذى لا يكف عن الابتهاج ، ولا النهد المشرئب إلى خطايا الكون ، ولا - آه - صفاء القلوب ! . بئس الرجال يا عم سمسم. يا غنى يا صاحب المعديات والزرائب والبيوت . قالت أنها رفضت الزواج . قالوا وافقت وانتحرت مشعلة فى جسدها النار . يا رحمة الله كيف لا يفهمون ؟ من قال أن وردة خلقت ليتزوجها غير"دومه" ؟ من قال أن النار يشعلها الماء ؟ من خلط الأشياء ؟ هذا الفقر اللعين . يضحك ويحاول أن يفر من دغدغاتها . وفؤاد الآن لا يفهم أن أكثر ابتساماته قديمة الإثارة . يكاد يرقص وهى تعضه . لولا السرادق لفعل .

«أحبك » .

قالت ....

«كلام سينما»

قال ....

«ادخل فى صدرى يا ولدى المجرم» .

تقهقه ويدخل . ينزل بئر المعدية ليغرق .

«انظرى . بخر الماء أبيض والليل أسود والبئر أسود فلنبعد عن كل لون!».

تقهقه وهو لا يفهم ماذا يقول .

«الولد الصايع شاعر» .

تقول وتضحك فتضئ البشر ويشرب ، وكلما ازداد عطش ، فعاود وقوة الشياطين تدب فيه ، فيقفز في ماء الترعة وتقفز يعلمها وسط الليل السباحة ! .

«نتطهر بماء وسخ» .

ويضحك وتقهقه ويعجبه حملها ممتدة الجسد يكاد يغطس في الماء ، فتكون خفيفة ، فيرفعها أعلى الماء فتصير ثقيلة ، ويتركها فتسقط أسفل الماء، وتجده جالساً في القاع المظلم ، فيصعد ويرفعها فوق كتفيه جالسة محيطة بساقيها ترقوتيه وعنقه ، ويسبح كالفرس ويغطس ، لتظل فوق الماء فيصعد من خلفها ، ويمرحان كأن الدنيا خلت إلا منهما وبخر الماء الأبيض يرتفع يغطيهما ، ويمسكه بيده فيفلت من بين أصابعه وتتنفسه بفمها ، وتخرجه فلا يخرج ، ويقول «حلم حياتي أن أشعل لك تحت الماء شعلة» . ويخرجان فيرتدي ثيابها ، وترتدي ثيابه ، ويضحكان وهي تضع يدهامن تحت جلبابه تعبث بفخذه ، وهو يفك أزرار بنطلونها ، ثم يتبادلان الثياب ، ولا تنتهي الليلة فهو يعرف أنها لم تنم مثله ، بل ظلت تحملق إلى سقف حجرتها ، وتتمنى لو صار ماء نهر فيه تسبح . وفي الصباح يتشاجر . كل يوم يتشاجر مع خمسة أو أربعة أو أكثر من الرجال الجالسين في دكانتي جادو وبرعي ، فتطير المقاعد من الدكانتين إلى الدكانتين ، ووسط الطريق ، ومن رأس إلى رأس ، ويهوى الرجال جميعاً على الأرض يزحفون مبتعدين فيخلع ثيابه . ويرقص عارياً ، ويقول الناس «جن "دومه" ولا قبل لأحد بإخراج الجن الذي تلبسه !» .

لكن النسيم بارد ، و"دومه" يشعر بالشيخوخة فى هذه الليلة التى سيقف عندها الزمان عشرين عاماً فيما بعد .

يصل إلى النقطة المقابلة للمعدية ، فيخلع ثيابه نازلاً الماء ببطء ، فترعشه البرودة الغريبة على مياه الترعة الدافئة الثقيلة ، ويسبح بيد واحدة حاملاً ثيابه باليد الأخرى . فى منتصف الترعة يتوقف .

لماذا تخلو الترعة من الجنيات ؟ يتحدث الناس كثيراً عن جنيات البحر ولا يراها !

لماذا تخلو الترعة من الحيتان ؟

لماذا لا يعلوها إلا بقع زيت ونبات الياسنت ؟

لو يغرق ...

يفرح بالاكتشاف . أرواح العشاق تأبى إلا أن تلحق ببعضها . أرواح العشاق تعرف كيف تفرح فى الموت . المنتحرون يذهبون إلى جهنم ! . لن يخاف . «عذابى فى الدنيا أيها الغنم . عذابى وأنا بعد طفل رغم كونى رجلاً »

أمه قالت ذلك وأبوه . أمه طيبة وأبوه طيب ، وهو غريب فى أسرته ! . لكن ليس لكل الأولاد أب مثل أبيه يبيع «غزل البنات» للأطفال ويقتصد ليعلم ابنه . لا يعرف المسكين أن الفشل لافتة معلقة على قفا الولد ! . ضابط البوليس العجوز قال ذلك يوماً وهو ينظر فى عينى "دومه" نظرة طويلة، ثم أمر المخبرين بضربه ضرباً مبرحاً . أنه أيضاً طيب !

يترك نفسه يهوى فى قرار الماء الثقيل . تلمس قدماه طين القاع اللزج . تغوصان فيه . ضاعت ثيابه من يده ولم يدر . ينكفئ فوق الطين على بطنه . يضع فيه رأسه . يشمه فيشم العطن . تنفر روحه بقوة خرافية . يرتفع قهراً إلى السطح ملطخاً بالوسخ . يمسح جسده ويسعل ويتنفس بسرعة . يقرر الهبوط مرة واحدة بقوة إلى الأبد . يتشبث فى الطين بكفيه . قوة جهولة لا يعرفها توقظ روحه ، وتجعل الطين ينزلق من بين أصابعه ، دافعة به إلى أعلى من جديد . يشهق . يسعل . يزفر الطين من فمه . تهدأ نفسه قليلاً ويقرر من جديد . يستجدى الله أن يموت . أن يعطيه الفرصة فى الموت . «تأخذنا حين تريد وتكره أن نأتى إليك لماذا ؟»

لا يصدق أن الله يكره ذلك حقاً ! .

فى هدوء وتصميم هائلين يهبط ببطء هذه المرة . يغمض عينيه دخولاً إرادياً فى الظلام الأبدى . يضم ساقيه إلى بعضهما فارداً ذراعيه إلى الأمام، ويضغط بجسده على الأوحال علها تتمسك به . يجد فارداً إلى أعلى ، فيرفع ذراعيه دافناً وجهه فى الطين أكثر ، ومقاوماً الطرد اللعين . القوة الحمقاء تعود فتطرده إلى أعلى فيجد نفسه فاتحاً فمه ، باصقاً الطين رغم إرادته . يلطم خديه ، ويشد شعر رأسه . يبكى بصوت يسع الليل . كيف إذن يغرق الناس ؟ تنهد القوة ويكف لاهثاً . يحس بتيار راحة ، وسعادة تغمره مفاجئة فينتشى . إنه يتفرج على شخص آخر . يفكر ويمسح الطين عن وجهه ، ويدمع الذى ظن الناس أن دموعه من حجر ! .

ينزل القمر يقف فوق سطح لماء بعيداً ويبتسم بوجه عريض . ينفلق الماء

لقد دفعوا جميعاً بدومة إلى أعلى ، وجعلوا من تحت قدميه أرضاً صلبة، فصار يسبح كأنه يمشي . لكنه يدور في دائرة ضيقة ، محموماً يبحث عن شئ لا يراه ، شاعراً بالسائل اللزج الثقيل يخرج من أكثر من مكان في جسمه . يضع يده على بطنه فيمسك بأحشائه . فجأة يسبح كالحصان خلف حسن . يعيد أحشاءه داخله بيد ، ويسبح بالأخرى . لكن حسن كان أسرع.

قبل أن تتركه الأسماك والحيتان والأرواح وتعود إلى جحورها ، يدرك "دومه" أنه سيموت لا محالة . سترسله سكين حسن إلى وردة . يرفض الذي قرر الانتحار منذ قليل وعجز عنه . يسبح إلى الشاطئ القريب الذي أتى منه ناظراً إلى شبح حسن الهارب بحقد ومرارة . يحاصره القمر عائداً من كل جهة فيكشف له الدم يغطي بطنه وساقيه ، بعد أن تمدد فوق طين الشاطئ الجاف الذي تخرجه الكراكات من قاع الترعة كل عام .

يقرر "دومه" أن يعيش حتى ينجح في الذهاب إلى وردة بإرادته . ماذا يقول لها لو أرسله أحد غصباً ؟ . لو أرسلت هي إليه فقط سيذهب طائعاً . يريدها أن تعرف كم يحبها . يقرر أن يصرخ مستغثياً ولو من أظافره . وها هو ينجح فيسمعه فؤاد الذي عاد الليلة بشعر أبيض .

ينظر "دومه" إلى فؤاد مثقلاً بجرح وافر الدم ، لكنه يريد أن يحدثه . هذا الشاب لم يعن شيئاً له . لا وهو صبي ولا حين غاب . لكنه وقد عاد فعلى "دومه" أن لا ينسى أنه - فؤاد - أنقذه يوماً من موت رخيص . كم يود "دومه" الآن أن يعرف فؤاد كيف انقضت العشرون عاماً ..

انتقل المعداوي حسن إلى حسن بك . وسأقتله أمامك . لقد استجمعت

قوة "دومه" المنسية قرضـها كل ليلة شوق وحزن إلى نار البراءة ! . لن ينقذ حسن أحـد ولن يتألم حـسن !. ستـمر السكين بين عنقـه أسرع من بصـقة الأسياد !! .

بعـد عشـرين سنة سـأسـافر إلى عـينى وردة هارباً من كـوابيس حـسن وأيامه. أما فُلَّة فقد أدركت أنها ليست ضالتى جـميلة مثل أختها حقاً . هل تذكرها ؟ كانت تمشى خلفها . علمتها وردة كيف تضحك الشمس ويبتسم القمر . لكنهـا لن تكفينى عنها . حتى أمس فقط كنت بالاسـتسلام أريد أن أواصل ما قطعته الحـماقة . أجل . حماقة عم سمـسم الذى أجبر ابنته على زواج فاتر . حـماقة وردة التى تركت الجميع وأحـرقت نفسـها بدلاً من أن تحرقهم . حـماقة حسن الذى أراد قـتلى خوفاً أن تخـتفى المعدية فيتسول ، ولم يتسول بعد سجنه ، بل قفـز كالثعلب إلى موائد لا ندركها . فكرت أن فى الدنيا نظاماً حقاً . أنه قد ترتب لى أن أحـيا بعد وردة عاشقاً . قررت أن تكون فُلَّة رائحـة أرى بهـا وردتى المقـتولة . لكنى الـيوم أصـبـحت مقـرراً الخروج على الاستسلام والحماقة وكل ترتيب جرت به الأرض أو السماء . سأركب حسن الليلة . ليـس لما أعرفه عنه . فهو يعـاملنى بكرم . كونه لصاً سـرق فلوس شركـة الغـزل التى أعطوها له ليـوزعـها على الـعمـال الذين خرجوا يوم استقبال نيكسون رئيس أمريكا ثم اختفى فهذا ليس شأنى . لماذا لم يقبضوا عليه ؟ أنا أيضاً كثيراً ما سرقـت قطناً من السفن قديماً ، وكثيراً ما سرقت ألواحاً من الكُسب . أن يظهر بعد ذلك حاملاً تصريحاً من المحافظة ببناء كشك يبيع فيه ويشترى ، ثم يمتلك بعد عام سيارة نقل بمقطورة تصبح

أسطولاً ، فهذا ليس من شأني . ليس شأني . ليس .. الله يوزع الأرزاق وإن بدا تهاون في توزيعها في بعض الأعوام ! . أنني أصلي منذ عام ! . وأنا أعمل عنده مثل الناس جميعاً . لقد هتفوا له قبل الانتخابات وهتفت أكثر ، وأوسعت له الطريق بين الزحام ، وبح صوتي . أن أصبح سره الوحيد فهذا لا يضايقني . أحضر إليه كل ليلة البقرة طائعاً ، وأجلس ضاحكاً خلف باب الحجرة الواسعة أسمع بحات صوته وتلاحق أنفاسه واستعطافه وخوار البقرة الهادئ الذي ما يلبث أن يقوى ثم يعود يهدأ ، وأعيد تسوية فرش الحجرة بعد أن تهدم البقرة كل شئ . كونه سيبني مصنعاً لتعليب الأسماك لتعمل فيه بنات الحي ، فقط ليجرب امرأة قبل أن يموت كما قال وابتسم ، فهذا شأنه . ربما يجد فتاة تنجح في ان تخور كالبقرة ، فيكون ثوراً بحق !

بدلاً من أن يقتل بائعة لبن مسكينة رفضت أن تخور ويلقي بجثتها إلى أسماك المزرعة مرة أخرى . أجل . لقد حدثني أحد الفلاحين العاملين في حظيرة البهائم بذلك ذات ليلة وسافر رعباً لأن الهواء يحمل الكلام إلى حسن بك كما قال وهو يغطي وجهه بعباءته ويمرق مع بزوغ الفجر . لكني لا أنسى نظرة عينيه حين سألني ألا أتزوج ؟ فقلت «فُلَّة» .

كيف ترك الحجرة غاضباً وصفع أول عامل قابله من عمال المزرعة السمكية . ولما وصل إلى الهاويس الذي يصلها بالبحيرة فتحه فتسربت الأسماك كلها إلى البحيرة من الأحواض . لقد جلس فوق بوابة الهاويس يضحك بشراسة . صرخ . زأر . طلب زجاجة ويسكي فأحضرتها إليه أنا الذي كنت أسير خلفه . شرب كأنها ماء وألقى الزجاجة في البحيرة بقوة مجنونة فأفزع الخفافيش وسط الهيش .

«أما زلت تـذكر وردة بعد عـشرين سنة .لعـنة الله عليك .. فُلَّة التى فى عمر ابنـتك .. قد تقول ريحانة أيضـاً فأنت جسور! لعنة الله على سـمسم فقد كان مولعاً بأسماء الزهور ويبول فى ثيابه» ولـم أقل له أنه ليس ذنبى نمو جسمى مبكراً . فعمرى لم يتـجاوز السادسة والثلاثين . جعلونى رجلاً وأنا بعـد طفل . جعلونى هرمـاً وأنا فى زهوة الشبـاب . لـم أقل أن فُلَّة تتـجاوز العشرين . أن هناك رجالاً يسبقون زوجاتهم فى العمر بعشرين عاماً وأكثر. هؤلاء السعـوديون الذين يأتى بهم ليتزوجوا من بنات الحـى ويزورون عمر البنات ليكون الفـارق قليلاً كما يـقضى القانون وهو يزيد عن العـشرين !. عدت لأبكـى ولـم أنظف الحجـرة . لـم أشعـر إلا به وقد عاد . كـان الوقت يقتـرب من الفجـر . ظننته يريد البـقرة التى نسـيها تلك الليـلة . قررت ألا أفعل . ما أدرى به إلا وهو يـغلق الباب بالمفتاح من الداخل ويصـفعنى مرة ومرة ومرات بيـديه السمينتين اللتين كانتا يومـاً مثل يدى الغراب . تكومت كـفـأر لأول مـرة فى حيـاتى . وإذا به يخلع ثـيـابه . يمزقـهـا . ومن خلف الدولاب تناول عصا سميكة .

«سأفتح رأسك إذا لـم تخلع ثيابك . لابد أن تمضى عمرك واقفاً» .

لـم أفهم وهو يدور مجنوناً حولى ويضرب بقـسوة ووحشية . أرادنى أن أسقط على الأرض وحـدث . سمعت صفـير العصا كـالريح طائرة نحوى مرة ومـرات . غرس العصا فى فـنفرت مجنوناً .كنت كـالميت لكنى نفرت بقوة جبارة ووقفت وهو يزعق «ثلاث مائة مـرة يا ملعون سأجعلك تشخب دماً مـثل قمع» ولم أفهم . لكنى هربت . اندفـعت مصطدماً بالباب فـسقط

أمامى وقفزت فوقه . من الجحيم هربت وظللت أجرى حتى البحيرة حيث ألقيت بنفسى . كانت ضحكاته البشعة تلاحقنى فظننته خلفى .

مرتان أراد قتلى ولم أمت .

ماذا بيننا من عداوة لا أفهمها ؟

كان لقيطاً لا يعرف له أحد أبا . وكـان أبى يبيع «غزل البنات» فهل كان بين الأبوين ثأر ؟ هذا البشع الأجرب سأقتله . لا رغبة عندى فى فُلَّة أو غير فُلَّة . لن أرى وردة إلا مـلوثاً بدمـه . وسـأظل أبتـسم وسـتظل تـنظر إلى مستغـرباً حتى تعرف . مهلاً . أنى أشعر بك تـريد الفرار من السرادق ، لقد كان الميت أباك بحق . هل نسيت ؟

وكأنما يقـرأ "دومه" ما يدور فى ذهن فـؤاد . الذى نسى السرادق وأباه . لم يعد يسمع صوت المقرئ . سيطر عـليه شعور غريب بأنه لا يجلس فوق مقعـد . بل خازوق حشر فـيه ولا فكاك منه . وابتسامـة "دومه" المتكررة لم تعد تثيـره . تذكر أنه نفسه يضحك وهو يمشـى فى الجنازات . لقد مشى فى شهـر واحد خـلف عشـر جنازات تخص أقارب أو أهل بعض زمـلائه فى العمل . فى كل مـنها كان يضـحك حتى أنه فى إحداهـا أحس بالخجل من نفسـه وأكثر من شـخص ينظر إليه مندهشاً ، فـتراجع عن صفـوف الرجال حتى اقـترب من النساء اللاتـى كن ينحن ويبكين ويولولن ، ليعطى لنفـسه فرصة المشاركة الوجدانية ، لعل الحزن يـصعد إلى وجهه . الشعور الغريب الذى يلازمه منذ سنوات بالـعدم ، وبتفاهة مـا حوله ، بل وكل ما يفكر فـيه الناس ، هو المسئول عن ذلك بالتأكيد . لكنه قرر مرة أن يكون جاداً فى فهم نفسه فقالت له «رؤى» .

«هذه مسألة يجب أن تكف عنها» .

«كيف ؟» .

«لا أعرف . أنها تخصك» .

ضحك .

«لقد أخذت الأمر جاداً» .

ابتسمت .

«أنت السبب .. لماذا تحدثنى عن الموتى ؟» .

حقاً لماذا يفعل ذلك . تساءل ولم يجد جواباً مفهوماً . لم يحدث أن تحدث عاشقان فى ذلك .

وفاجأته .

«آن الأوان أن نحدد موقفنا» .

نظر إلى مياه النيل الساكنة الثقيلة . أدرك بحاسة الخوف التى اكتسبها طوال علاقته بها أنه لا مهرب اليوم .

كثيراً ما تساءل لماذا يمضى فى علاقة لا يستطيع أن يضع لها نهاية سعيدة، لكنه كان أيضاً يتساءل ، لماذا تفعل مثله ، فيتشجع على الاستمرار . أراد أن يعبث هروباً فقال :

«أنت تشبهين فتاة أحرقت الشباب والرجال وأشعلت فى نفسها النار فى الأسكندرية» .

لكنها لم تـهتم . وها هو قد جـاء عبثـاً ليرى الرجلين الذى تقـاتلا يوماً بسبب الفـتاة . كـثيراً مـا فكر أن النيل الواسع له لون الترعـة الصغـيرة التى تخرج منه . لعله يخرج منها !.

قال مدرس الجغرافيا قديماً أنه فى الأسكندرية تصبح الدلتا جنوباً ، وفى القاهرة شمالاً !.

لكن الترعة شهدت ليالى سهر . كانوا يشعلون النار وينظرون إلى القمر ويفرحـون إذا سقط نجم بذيل . ينصـرف أصحابه فـيتسلـل راجعاً ليـسمع الصفير الهادئ السارى فى الليل قادماً من المعدية . لعل "دومه" كان يعرف . هذا هو السر المقبول لابتسامته الغريبة .

«وردة هذه لن تنتهى إلا واقفة على أنهار دم» .

يقول الجـالسون من عمـال شركة المـلح والصودا ووردة كعـادتها وربما للمرة الألف تفتح فاترينة الحلوى .

«هل رأيتم قمراً فى يده قمر ؟» .

يصيـحون ووردة تبتسـم . يبتسمـون ووردة تقهقه . يتـوقف الطعام فى حلوقهم . تعطى فؤاد يد القمر الصغير !

«امسك يا بلبل» .

يملأه زهو . تأخـذ الحلوى وتسحب أختـها مـن يدها . تنصرف متـأودة مشعلة ناراً فى الهواء غير نار الأمس !

تقرص فؤاد فى ذراعه . أنه لا ينسى . لابد أن "دومـه" رآه أكثر من مره

... لابد ...

الطفُلَّة أيضاً تمشى متأودة .

«نفس العينين !» .

«والوجه» .

«والشعر» .

«واللعب !» .

يضحكون ....

«الخالق واحد » .

«ومجهول » .

يضحكون أكثر .

«هذا شجر للحسن والجمال» .

«والموت لو تدرى» .

«الرحمة للعباد» .

يسمع ويشتعل وجهه حنقاً . لا يقوى على العراك . يتابعها بعينيه ويرغب لو يسد أذنيه عما يسمع . الصبى الصغير فؤاد يعرف الغيرة . كيف يستطيع أن يقهر هؤلاء الشباب والرجال . يراهم جالسين حول مائدة كبيرة تمددت فوقها وردة موثوقة بالحبال . يقبل شفتيها أحدهم . الآخر ذراعيها . الثالث يتوسد فخذها . الرابع شعرها . الخامس يركبها . السادس يعبث

بيده بينها وبين المائدة . يتلفت الصبى - حقيقة - يبحث عن "دومه" . هو الذى يستطيع أن يحمى كنزه . يراه جالساً أمامه فى السرادق شيئاً مضحكاً حقاً !. لابد أن "دومه" استقبل أكثر من مرة رسالته التى لم يرسلها إليه . لابد سمع قلبه ضربات قلب فؤاد . لابد أحس "دومه" برغبة فؤاد فى ضرب جميع من ينثرون التعليقات . وإلا لماذا كان يتشاجر كثيراً مع الجالسين فى الدكانتين كل يوم ؟ لا يفعل ذلك إلا شخص تعددت لديه الأسباب . ثم أين كان يختفى كل مساء يذهب فيه فؤاد إلى المعدية ؟ وردة لا تعود إلى منزلها وحدها . "دومه" لابد كان يوصلها . أين كان يختفى إذن وفؤاد يسمع الصفير الهادئ السارى فى عتمة الليل ويرى بياض الذراع الباعث على الاطمئنان من الشاطئ الآخر ؟

«لماذا يسمونك بلبل» .

«......» .

«هل تغنى ؟ » .

الأنامل القادرة تفك أزرار طوق الجلباب بثقة فتكشف النهدين . يضيع الريق .

«تخجل .. ؟ لست صغيراً» .

«.....» .

«هات يدك» .

ترتعش اليد الصغيرة فى يدها .

«لا تخف . إلا تتعلمون ذلك فى المدرسة ؟» .

تتوه اليد الصغيرة فى يدها .

«لا تخف . ألا تتعلمون ذلك فى المدرسة ؟» .

تتوه اليد الصغيرة فى طريق البراءة والنار . النهار يكشف الأسرار . لا يستطيع جذب يده . من كل بقعة فى جسدها يخرج ضوء . لا يستطيع أن يقاوم . لماذا يقاوم ؟! .

«تعال بالليل» .

أحب أن تنكشف الدنيا جميلة مبهرة . طار فيها .

«هذا ليس حراماً»

«......»

«سأضربك لو قلت حرام» .

«....» .

«هل تحبه ؟» .

«.....»

«إذن ليس حراماً كما قلت لك» .

ولا يعود البئر معتماً . الجسد رائق الضوء ، يوسع فى الليل .

«لماذا أنت خفيف هكذا ؟» .

«......»

«سأحجز لك قطعة حلوى كل يوم» .

تعرف الذراع الجسورة طريقها تحت قميصه وسرواله . الجسد الصغير يحمر .

«لا تبك» .

الشفتان الشبقتان تغتالان الشفتين الوادعتين . أنها تعريه تماماً .

«لن تشعر بالبرد» .

تضحك ..

تدغدغه فيضحك ..

يتسع البئر لا يدرى بسيقان كثيرة تلتف حوله . أشعة حانية تخرج من الجسد الأبيض الرجراج .

تهتز المعدية .

«ما هذا ؟» .

لقد تكلم . تضحك .

«ألا تعرف ؟» .

«أنا ... أنا فرحان» .

تقبله .

«أريد أن أنام» .

«اذهب ولا تقل لأحد . تعال يوماً واترك يوماً » .

وتضحك ...

«لا يجب أن تموت !» .

لابد أن "دومه" كان يجلس فى الكشك ، أو يربض فى مكان ما . فوق سحابة أو تحت المياه إن لم يكن على الشاطئ ، ويرى كل شئ . هذا ما يجعله يبتسم أو يطرق إلى الأرض . ومن يدرى ربما يتذكر كيف أنقذه فؤاد، ويلعنه فى سره .

بعد عشرين عاماً يبدو "دومه" شيئاً زرياً تعساً . لولا أن فؤاد أنقذه ما عاش ليصبح هكذا ، ربما يسخر "دومه" من كل شئ ، ويتمنى لو تركه فؤاد يموت . الموت كثيراً ما يكون حياة ! . تجربة غامضة تستحق أن تعاش ! . هذا المقرئ لا يريد الانتهاء . "دومه" لا يكف عن الابتسام والتململ ، حسن جالس كحجر . يبدو على مستوى الموقف حقاً . وضع خاص له بالتأكيد يجعله يجلس هادئاً . القلق الذى بدا عليه منذ قليل لابد له سبب خاص أيضاً . فؤاد لم يعن شيئاً بالنسبة له . فؤاد يدرك ذلك . الآن أيضاً لا يعنى شيئاً . وانقاذه ل"دومه" صدفة منذ عشرين عاماً لا يمكن أن يسبب لحسن توتراً الآن . لابد أنه لم يمض بالسجن أعواماً كثيرة لأن الوضع الذى يبدو عليه يحتاج لزمن طويل لبلوغه . «أما أنك لاتعرف شيئاً حقاً» . يقول فؤاد لنفسه شاعراً بالعته . على كل حال صار حسن شيئاً و"دومه" شيئاً

آخر . لا يمكن أن يكره حسن "دومه" .

«العالى لا يكره الواطى» .

«من قال هذا» .

«أنا» .

«إذن الواطى يكره العالى» .

قالت ذلك مندهشة ومتحدية .

«إطلاقاً . المساكين طيبون» .

ضحكت ساخرة .

«إذن كيف تفسر أننا نعيش قصة حب لخمس سنوات ولا تنتهى ؟» .

واحتدت .

«ولم يعد لدينا دم ندفعه فى شراييننا» .

ثم فى ضيق شديد .

«ولماذا هذا العته الذى على وجوه الناس ؟» .

فى كل ما قالته كانت كمدفع . صمت كثيراً . منذ عشرين سنة انتحرت وردة لأنهم أجبروها على الزواج ، إنه لا ينسى . بعد عشرين سنة ستنتحر «رؤى» لتتزوج . وهو أيضاً . لماذا يكذب ؟

«أنا تعبان» .

مشيا كثيراً جوار النيل الساكن . لا يصدق أن السد العالى يفعل ذلك بالعشاق . لا نسمة هواء . لكن اليوم كان فريداً بحق . سقطت فوق القاهرة، التى قذف نفسه إليها لأن خاله يعيش بها ، آلاف الأمتار المكعبة من تراب الخماسين كتبت عنها الصحف فى صباح اليوم التالى ، أن القاهرة لم تشهد مثلها منذ عشرين عاماً ! فابتسم ، لم يجد طريقة ليتصل بها يلغى موعدهما . كان عليهما أن يلتقيا وسط الغبار . أنهما لم يخلفا موعداً من قبل . لكن العواصف الترابية انتهت قبل الموعد وإن بقى الفضاء أصفر كالحاً عجوزاً . تحت الأشجار المتربة كانا يمشيان حين وصلا إلى ميدان التحرير الذى خنقت كل مصباح فيه يد مارد ، فبدت المصابيح كحشرات صغيرة ، أمطرت السماء . كان يعرف أن الناس جميعاًتنتظر هذا المطر بعد يوم أغبر طويل مرهق . لكنهما دون الناس جميعاً كانا بالميدان الواسع كفم غول . ما فائدة مطر يسقط على بشر نيام فى البيوت ؟ أجمل الألعاب لعبها تحت المطر فى مدينته بعيدة الزمان .

كانت بالميدان أتوبيسات قليلة خالية جميعها ، وعربة شرطة تحت الكوبرى ترصد النسمة العليلة لو أقبلت ! . آه

تلك الليلة القريبة صارت بعيدة كأنها مدونة فى كتب صفراء . الفتاة الوحيدة خالفت عرف الغرام .

«نفترق» .

قال فوافقت بعد خمسة أعوام من الركض فى الخلاء وتحت شمس قوية، زارا فيها كل ما يمكن أن يزوره عاشقان يمتلكان فى كل لقاء قروشاً

قليلة !.

«ألا تعرفين أن اسمك جميل نادر ؟» .

«قلت ذلك أول مرة» .

«من أسماك به ؟» .

لم ترد . لم يحدث فى تاريخ الحب أن انفصل عاشقان على رضا . لكن الدموع تسللت من عينيهما .

«حاولت السفر فلم أفلح . حاولت العمل بشركات الانفتاح فلم أفلح . كلما ذهبت وجدت شباباً وفتيات ناضرين لا أعرف متى التحقوا بالعمل ولا كيف . أننى شخص تعس . لقد فكرت أن أرتكب عملاً مجنوناً . لكننى خفت» .

لم ترفع وجهها عن المنضدة الصغيرة فى الكازينو الخالى .

«فكرت بحق أن أذهب لرئيس الجمهورية» .

قال بتأكيد وضيق لم يفارقه بعد . قفزت إلى عينيه صورة غريبة لطفل شاهده عند ابنة خاله التى عادت مع زوجها من الخليج بعد خمسة أعوام قالت أنها نسيت فيها المشى . حطم الطفل طائرة كان يلهو بها فأعطته أرنباً يمشى ببطارية . قذف الطفل الأرنب بعيداً فأعطته دجاجة تبيض وتصدر صوتاً مزعجاً ، فقذفها أيضاً وصرخ .

«عايز التليفون !» .

لقد ولد الطفل بالخارج منذ أربعة أعوام ولم يعرف هو لماذا يريد التليفون بالذات . صفعته أمه فجرى الطفل إلى أبيه الذى زجره وطرده . توقع فؤاد أن يتوجه الطفل إليه فلم يفعل . اتجه إلى ركن بعيد من الحجرة وجلس واضعاً خده على يده ولم يدمع . أشارت أمه إليه فلم يزد عن أن يرفع إليها عينيه . ابتسم أبوه وأشار إليه ، فلم يفعل غير ذلك ، وقال بلغة رائعة دون أن يغير من وضعه «تضربونى أنتم الاثنين» ! ! .

لازمته صورة الطفل ولازمه الضيق المجهول يقفزان إليه فى الوقت الذى لا يتوقعهما ولا يريدهما ! . ومنذ أيام قليلة فقط شاهد «رؤى» تمشى متأبطة ذراع شاب مبهرج الثياب . فى حجرته الصغيراستيقظ داخله الحنين الدافق . وضع خده على يده اليسرى وكتب الخطاب الأحمق . ما كاد يضعه فى المظروف حتى سرى دم فرح خافت فى شرايينه . كم أحب القبلة الخاطفة التى وضعتها رؤى على خده فجأة وهى تصعد الأتوبيس فى أخر ليلة ، وتتركه لآخر مرة ، دون خوف من نظرات موظفى هيئة النقل الجالسين داخل الكشك . لماذا فعلت به ذلك ؟ . سؤال ملأ الميدان المعلق كشمس بلهاء ولم ينسه حتى بعد أن ركبت مع الشاب مبهرج الثياب سيارة عند ناصية الشارع . تاق حقيقة لأن يرى أباه ولو مرة ، وإن أدرك الآن أن الزمان لا يعود إلا مضحكاً . فها هو يقف فوق المعدية بعد أن تسلل من السرادق المذبحة هارباً ، ليرى «فُلّة» تخرج من نفس البئر المظلم ، فتعيده إلى حقيقة لم يفهمها إلا متأخراً . الأرض تدور فى هواء فارغ . لكن حين قالت .

«أين أنت الآن؟» .

بعد أن نـظرت إليه نظراتهـا الطويلة ، أدرك أنه لم يصل للفهم الـشافى بعد . فـى الدنيا أماكـن عديدة تختلـف . والأرض أبداً ليس كمـا تصور . لكنه لم يرد . فـالفكرة التى كوّنهـا منذ لحظة لتؤكـد فكرته السابقـة ، ليس سهلا أن يتخلص منها . راوغ قائلاً :

- هل أدفع أجراً ؟

- لا مانع .

أخرج قرشاً ناوله لفُلَّة التى مدت يدها فى صدرها تخرج «بُك» نقودها. كان الـقمر ثـاوياً تحت ثوبها ، ورآه فـؤاد الواقف أعلى المعدية ، التـى ما أن وصلت إلى الشاطئ حـتى تنهد . سيضـع قـدميه أخيراً علـى الشاطئ الآخر ناجـياً . منذ قليل أحـس بأنه قاتل . الآن يحس أنه سـيـقتل . قـفزمسرعـاً فباغتته.

- انتظر ..

لكنه لم يتوقف كثيـراً . لحظة ومشى محترقاً . خطوات قليلة وسـيصعد إلى التـرام . لم يفـكر فى حلم أو كـابوس . سـمع تعـليـقـات صـادرة من الكشك الخشبى الذى يجلس فيه عمال الترام موجهة إلى فُلَّة القادمة خلفه . الجمـيع يتحـدثون عن النوم الذى لا يجب أن يكون مبكـراً ! . صارت فُلَّة جـواره فانقطعت التـعليـقات . فكر أن يلتـفت ليـرى ما إذا كـانت الأنوار أطفـئت على الشاطئ الذى تركـه حقـاً ، لكنه لم يفـعل . تساءل كـيف لم

تســمع فُلَّة ولا المعـداوى ولا عمـال التـرام صوت الـهرج والصـراخ الذى انطلق من السرادق .

- لماذا تسرع ؟

لم يرد . صعد الترام وعلى أول مقعد جلس فجلست أمامه . لم يشأ أن ينظر إلى وجهها أو يتحدث . صعد المحصل وتحرك الترام .

- مكسوف !؟

ماذا يفعل ؟ . ربما تبدو القصة القديمة باهته حين تعاد . لكن فُلَّة تسكب زيتاً بارق الاشتعال . كان الترام قد ابتعد فأراد أن يختلس نظرة إلى الشاطئ الآخر لكن تعـذر عليه . البرامـيل والأشجار المتكومـة التى رآها حين جاء ، تسد عليه الرؤية .

- أنها عشرون عاماً .

قالت حين لم يرد على سؤالها .

- تعرفين أنها عشرون ؟

ابتـسمت . الضـوء داخل التـرام مبـهر ينعكس عـلى المقاعـد الصفـراء اللامعة فيزداد . لم يكن غيرهما بالترام .

- زوج أمى يريد أن يزوجنى من ابنه من زوجته السابقة .

«مات عم سمسم إذن» .

- وأنا لن أتزوج .

«أنها تضحك نفس الضحكة» .

- لو أجبرونى سأهرب .

«ولها نفس الوجه» .

- "دومه" حدثنى فى الزواج وسأهرب معه .

تهرب ! فكر فؤاد . كل ما فعلته العشرون عاماً أنها بدلت الانتحار بالهروب . كيف أنها عشرون عاماً منحطة !.

- هل خرج حسن المعداوى من السجن ؟

أفلت السؤال منه كأن حسن لم يقتل منذ قليل . كأن - فؤاد - ما يزال يصدق ما فكر فيه عن خرافة ما حدث وكأنه مجرد حلم أو كابوس . بالفعل لا يصدق أنه رأى قتلاً ودماً وسكيناً ، وسمع صراخاً وصخباً . لقد سمعها وهى تلحق به تقول للمعداوى بشع اليدين «لا تنسى البقرة والحمارة» فكادت تجعل من خياله حقيقة .

- يووه . صار شخصية . عضو مجلس قدر الدنيا .

بدأت سرعة الترام تهدأ . ستتوقف وستغادرها فُلَّة التى اتسعت ابتسامتها . إن لم تفعل يفعل .

- هل ستعود مرة أخرى ؟

بسرعة هز رأسه نافياً .

- إذا عدت بعد عشرين عاماً أخرى ستأخذ القرش . ستجدنى أو «ريحانة» .

- .....

-«ريحانه» آخر ذرية المرحوم . هذا وعد .

توقف الترام فنهضت مـودعة بيدها التى ربتت بها على خـده فى حركة مفاجئة . ما كادت تخطو خطوتين حتى التفتت هاتفة .

- ألم يكن الذى مات اليوم أبوك ؟

تكوم عليه ذهول فظل معلقاً ببصـره إليها لا يستطيع الكلام ، ولا يسمع صوت همهمة المحصل الذى يتابع جسدهـا الغاضب المهتز . لقد عرفته بعد عشرين عامـاً برغم أن وردة نفسها لم تكن تعرف أباه وأمـه . هذه الصغيرة التى لم يتذكرها مرة كانت تعرف من هو وابن من فى الوقت الذى ظنها فى البداية وردة ، فظن أن ما مضى منذ قليل يمكن أن يختفى بنهار يوم جديد أو يقظة مؤقـتة ! . ولم يصعد من المحطة إلى التـرام أحد فظلت مبهـرة الضوء واسعـة يكتنفهـا ظلام الشارع . وحين أحس أن المحصل يركـز عينيـه عليه خاف وانكمش ، وراوده خاطر عـجيب ، بأن المحصل سينهض ويتـجه إليه ليـقـول «أنت فـؤاد إبراهيم عبـد الحق الذى كنت تركب مـعى التـرام منذ عـشـرين سنة ، وأنك فى آخـر مرة لم تـدفع ثمن «التـسكرة» ، ومن ثم لى عندك حساب قديم لن يشفع فـيه موت أبيك أمس ولا كونك لم تحظ حتى بالمشى فى جنازته» وسيـخرج له لسانه أحمـر طويلاً متدلياً يلفـه حول عنقه ليخنقـه . ضاق صدر فـؤاد . فتح النافـذة الزجاجيـة مرتاعاً يود لو قـفز من الترام التى بدت فجأة كمصيدة فئران محكمة . كاد يصرخ مستنجداً بقوم لا يعرفهم لكنه يراهم ينظرون إليه من فوق جـبل أسود يرتدون ملابس بيضاء

واسعة يطيرها الهواء كما يطير شعرهم الأسود بل المضفر كالحبال إنه ، فؤاد إبراهيم عبد الحق غير مسئول عن موت أبيه . أبوه هو الذى اختار كيف يموت . كما أنه ليس بمسئول عن مقتل حسن المعداوى . وإذا كان من شئ يحسب ، فهو إنقاذه يوماً حياة إنسان هو "دومه" . أما أن "دومه" قد قتل فيما بعد مضحياً بحياته بلا شك فهو الذى اختار ذلك بارادته . ولو كان فؤاد يدرك لوقف بين القاتل والقتيل فى اللحظة المرجوة ، ولو أدى الأمر إلى قتله، فؤاد يكره القتل ولا يكره فى الدنيا غيره . بل هو يكره الدنيا لأنه قتيلها الذى لا يهتم به أحد . لقد ضاعت من العشرين عاماً عشرة عند خاله أحاطها الخجل حين يأكل وحين يشرب أو ينام . وعشرة حاول فيها أن يحظى بلعبة واحدة من لعب الأطفال فسرقت من بين يديه كل الألعاب . ولم يفكر أن يقتل أحداً . ترك كل مريد أن يسرق . لم يفكر مرة واحدة أن يقول للص «قف» . والذين سرقوا ألعابه كثيرون يراهم يجلسون على المقاهى الرخيصة يفتحون حقائب «السمسونايت» ويعدون العملات الأجنبية والمحلية متحدثين عن البضاعة المسافرة والقادمة وعن سعر الحشيش ، ويعلنون فى الصحف عن وظائف مغرية لم يفز بواحدة منها وهو المتخرج من كلية التجارة عصب الحياة فى مصر الآن ! . ويسمع كل يوم عن فضائحهم تتطاير فى الفضاء كما دخان ، أبيض ، أزرق ، أسود مغر ، خانق ، مزدحم . ولا ينسى سحنات وجوههم الملتوية فى الصور التى تتصدر الصفحات الأولى ، وهم يعلنون افتتاح المشاريع الكبرى . كثيرون منهم يشبهون حسن المعداوى كما رآه الليلة . ربما يكون حسن أحدهم .

ربما هو سبب فشله فى السفر أو الزواج برؤى التى نسيته . كيف لم يخطر حسن على بال فؤاد من قبل ؟ ماذا لو عرف حسن أن فؤاد فكر فيه على هذا النحو ؟ . يقول فؤاد لنفسه والترام تقف أكثر من مرة وتمضى ولا يركب أحد . لا شك أن حسن سيضحك . لماذا يا أخى ، كل ذلك لأنى لبست بدلة؟ سيقول حسن ويستمر يضحك .

ينسى فؤاد أنه ترك حسن جسداً بلا رأس لن ينهض أبداً . ينظر إلى بدلته السوداء الأنيقة والمقرئ يخفض صوته ويتراخى توقيعه . لقد تعب . الوقت يدخل فى العاشرة . ليل الشتاء ممل . كثيرون يتململون . دقائق وسينتهى كل شئ . من يدرى . ربما يقرأ الشيخ الآخر . لكن هذا يصبح ثقيلاً على الحاضرين . عليه هو بالذات . سيصبر . كل ليلة إلى انتهاء . النادرة التى وقعت ستظل معه طويلاً فلا بأس من الانتظار . بعد عشرين عاماً أخرى قد يقص هذه النادرة على الناس . كيف جاء ليرى وجه أبيه فلم يلحق به . وجلس غريباً بين غرباء . يكاد فؤاد يبتسم فيخشى ، لا يعرف لماذا ، نظرات "دومه" ! . لا شك ستزدحم الحياة بنوادر أخرى أعجب .

لم يتوقع فؤاد أن النادرة الكبرى ستحدث بعد قليل حيث سيعود المقرئ ليتحمس الحماس الأخير . سيصحوا المتثائبون ويعتدل المتململون ابتهاجاً بالصوت الرخيم القوى العميق . سترتفع أصوات الاستحسان والانبهار . ستخرج النجوم لتزحم السماء مطلة على الشيخ المأخوذ بالقرآن مترقبة خاتمة الليلة صافية النسيم . ربما متسائلة فيما بعد من كان يصدق أن "دومه"

سيتوحش هكذا ؟ . لن يكتفى بفصل الرأس . ستلمع السكين من جديد وهى تطير لتنغرس مرة ومرات فى صدر وبطن حسن وبين ساقيه . سيمسك "دومه" بالجسد منتفضاً بذراعيه نافضاً السكين من يد "دومه" فى معجزة يتحدث عنها الرجال والنساء والأطفال كأحدى التجليات الإلهية التى يمنحها الله لأوليائه !! ينتفض الجسد متمرغاً على الأرض قافزاً كالأخطبوط أكثر من مرة شاخباً دماً من كل ناحية بصوت كأنه شخير ثور . من فوق المقاعد ستصرخ حناجر . ستجرى سيقان . ستندفع إيـاد نحو "دومه". ستفتح نوافذ البيوت على الصرخات. سيقفز الشيخ مصطدماً بالميكروفون ساقطاً تحت الأريكة وفوقه . سيقع الشيخ الآخر ثم ينهض منتفضاً يدور حول نفسه رافعاً ذراعيه فى ذهول . «يا لطيف يا لطيف يا لطيف» يكرر مع كل دورة .

لم يتوقع فؤاد هذه النادرة . ولا المعزون . حسن نفسه لم يكن مهتماً إلا بخطئه فى قبول الاستمرار . ف"دومه" لا يزيد عن رقم سيمحوه الليلة . وما كان على عضو مثله أن يمتثل لرغبات الناس بسهولة . سيقولون أن لديه وقتاً طويلاً بلا عمل . أنه لا يشغله شئ من همومهم . سينسون أن جلوسه جاء لرغبتهم . أنه يعرف كيف يفكر أولاد الزنا . أمواله الكثيرة علمته أننا حشرات . سيقولون . سيرون القمامة التى استشرت فى كل مكان . سيعيدون الحديث عن أبنائهم الذين يكبرون ولا تسعهم البيوت الضيقة القديمة ولا يستطيعون الزواج . والذين ينتظرون عامين وأكثر حتى يعملوا . سيشكون له فقر وبؤس والد الولد الشيوعى الصايع الذى يقبض عليه كل

شهر عـاماً دون ذنب . «هل هذا وش بهدلة ؟!» انظر إليه . نحيف ضعيف أصفر الوجه نظارته مكسورة . "هل هذا شيوعى ؟" سيقولون وهم يعرفون أن الولد شـيوعى بحق . سيشكون له اهتـزاز منازلهم بـسبب دق أسـاس العمارة الجديدة التى يبنيها . كيف أن الأتوبيس الذى دخل المنطقة خرج ! . الجمعية تفتح أبوابها لاستقبال البضائع .. تغلقها للجرد . تفتحها لتعلن نفاد كل شئ . أكاذيبهم التى لا تنقطع كثيرة . لا شك يفكرون فيها الآن طالما أن لديه هذا الوقت كله ليجلس بينهم . كان يجب أن لا يحضـر أصلا . مسافر إلى القـاهرة لرفع بعض الشكاوى إلى المسـئولين الكبـار . أجل ولن يكون كاذباً . *رئيس الحى يلوح دائـماً بصلاته الخفـية* ، ويمد أنفه فـيما يفكر فـيه . يتراجع حـقاً كلما صمـد هو . لكن هذا يكلفه - حسن - جـهداً عصبـياً . زمـلاؤه فى المجلس أيضـاً يأخـذون مـوقف الرئيس . يقـدمـون أفكاراً رثة ويحسدونه على ما يقدمه من أفكار . أقصى أمانيهم حتى الآن أن تخصص للمنطقة عربة لجمع القمامة . لم يفكروا فى إقـامة مصنع يحول القمامة إلى ورق أو بلاسـتـيك مـثلمـا فكر هو الآن ، وقـرر أن يطـرح هذه الفكرة فى الاجتماع القادم ! .

هو الوحيـد الذى يقدم اقتـراحات عملية مـفيدة ، وهؤلاء الجـالسون لا يثقون بهذا . يبـدون له التقدير ويبطنون الاحتقار . كـان يمكن أن يعتذر عن عدم الحـضور بسـبب مشـاغله الخاصـة . حين يقول الخـاصة يشـفق الناس عليه. فـهو إنسـان مثلهم يأكل ويشـرب ويدخل المرحاض !. كـان عليه أن يعتذر ولديه ألف سـبب وسبب وجـيه . وهو الليلة مـشغـول بحق . هناك

«زريعة» جديدة من الأسماك ستصل فى الصباح بعد أن جُن أمس وترك الأسماك تهرب إلى البحيرة . هذه الزريعة لابد أن تبدأ غذاءها فى الأحواض بلحم جميل له طعم السكر . لحم البشر له طعم السكر كما يسمع . "دومه" لديه لحم بشر . هه . يريد فُلَّة ؟ لو أن عضو المجلس يستطيع الزواج من فتاة تعمل على المعدية ؟ . وابؤساً لهذا العضو. وقته موهوب للمجلس . للحى . للدائرة للشعب للعالم والإنسانية . أجل ليس أعظم من لص لقيط ليحكم هذا العالم . ليس بعد عذاب اللص اللقيط من عذاب ! كل المشاكل ستكون بين يديه هشه وتافهة . هذا جوهر العبقرية الغائب عن الناس لكنه إذ لا يستطيع الزواج من فله سينالها . سيبنى مصنع التعليب بسرعة وقرية الأيتام . سيخيرها العمل بينهما . سيعلمها كيف تخور كالبقرة أو تنهق كالحمار . وإن لم تنجح لن يفعل بها ما فعله ببائعة اللبن . سيقلع عن عادته القبيحة حتى لو كلفه ذلك قتل أبقار وحمير العالم كله ! . وسينالها . أشهى فتيات الأرض لن تخذله ولن يتزوجها ! . ما أعظم أن تكون أول امرأة مثل فُلَّة ، حتى ولو بعد هذا العمر الطويل . ليس من بين النساء اللاتى يراهن فى احتفالات الاستقبال والتوديع ، ولا فى افتتاحات البنوك والشركات ، عاريات نصف الجسد ، شفافات الثياب عن النصف الثانى ، واحدة مثل فُلَّة . أنه يشم لحمهن فلا يزيد فى رائحته عن رائحة فراخ الجمعية المجمدة ! . الشمس فى صدر فُلَّة . القمر فى بطنها . النهار على وجهها .

يا الله .. ! كم يشتهى امرأة الآن بعد هذا العمر . كم يود لو قتل هو عم

سمسم المنحط ، ولم يتركه يموت ميتة طبيعية . هو - سمسم - الذى بيته سنيناً طويلة مع البهائم فأصابه بالداء اللعين . وفُلّة التى مات أبوها سمسم المنحط وتزوجت أمها بأحد أتباعه ، لن تمانعه . آه . ما كان على عضو المجلس أن يترك المعدية تعمل حتى الآن . أنها شاهد على زمن قذر . وذاكرة أهل الحى قوية . أنهم يخشونه بحق ، لكن ماذا يحدث لو جن من بينهم ولد وقال له يا حسن يا معداوى مثلاً ! . ينتهى كل شئ . سيرددها الجميع . وربما يغنيها الأطفال «يا اللى أنت غاوى تعالى شوف المعداوى» . والكشك أيضاً الذى باع فيه سجاير يوما كان يجب هدمه . صار مكتباً لتنظيم السيارات . لكنه ذكرى أيام بشعة اختفى فيها فى مقابر الدخيلة التى اختارها لبعدها ووقوعها على الطريق مكشوفة مما لا يوحى باختباء أحد فيها. ومنها استطاع أن يحصل على التصريح ببناء الكشك !

ليهدم الكشك إذن فى الصباح ويلغى وجود المعدية . ليست المعدية ملكه حقاً ، لكن متى كان يعجز عن ذلك . أن الرجل الذى أخذ بيده منذ قليل ليجلسه جوار فؤاد ، هو أول من سيقع منزله بسبب دق أساسات العمارة . ولن يجدى صراخ الناس حول تعبهم فى الوصول إلى البر الثانى إذا سيضطرون للسير حتى الكوبرى . حسم الأمر . الصباح رباح . المهم أن ينهض بعد أن ينتهى هذا الشيخ مباشرة . هناك أربعة من الصعايدة ينتظرون "دومه" الليلة ، ليجعلوه وجبة مسكّرة لزريعة السمك القادمة فى الصباح الذى سيختفون قبل طلوعه .

وإذ تهرب منه نظرة إزدراء إلى "دومه" ، يلتقطها هذا لأنه كان يرقبه

طويلاً فتختفى ابتسامته التى كان فؤاد يلاحظها فيختلس بدوره نظرة إلى حسن ليجده مطرقاً ! ولا يدرك فؤاد ما تحدثت به العيون فى لحظة خاطفة . يظل آملاً أن تنتهى اللحظات الأخيرة حتى لو اختنق الشيخ . الدقائق الباقية كطرق الصحراء . الشيخ المتيقظ فجأة أيقظ جنيات البحر ، وجعل الكون كله يسمع . لكن "دومه" سرعان ما يروق منه الوجه ويفكر فى مياه المحمودية. وكيف أنها تحمل أشياء كثيرة . مجارى المدينة تصب فيها . نفايات شركات الصابون والزيت والكسب تنتهى إليها . القرى البعيدة ترسل إليها خطاياها وشرورها جثثاً بلا أصابع أو رؤوس . ما يمر يوم إلا وتجمع البوليس فى نقطة على شاطئها وحوله الناس ، ثم ينتهى كل شئ ولا يعود يذكره أحد .

على شاطئ هذه الترعة تنام نساء لفظتهن بيوت المدينة الواسعة . أطفال عراة لا يرون القمر فوقهم . تقع مخاز ، ترتفع سحائب دخان الحشيش من أكثر من غرزة تدبر خطط السرقات الكبرى والصغرى . وهو نفسه ، "دومه" لا ينسى كيف رأى منذ سنين ليست بعيدة عند نهاية الترعة قبل أن تتصل بالميناء رجالاً يستحمون بينما يجلس على الشاطئ «حلاق» شاب يرتدى بالطو أصفر فوق جلباب أصفر ، ويضع على حجر قريب حقيبة جلدية بها عدته ، ثم ينهض ليحلق لرجل أسود طويل وعريض خلع ثيابه استعداداً للاستحمام . "دومه" يعرف أن هذا الحلاق يحلق للرجال رؤوسهم وذقونهم قبل أن يستحموا . لكنه هذه المرة رآه يقف على الشاطئ الآخر يحلق عانة الرجل الأسود الذى وقف فاتحاً ساقيه ضاحكاًفى بلاهة

تظهر أسنانه من بعيد . كان الحلاق جالساً أمام الساقين السوداوين وبينهما ممسكاً موسى الحلاقة بيد ، وبالأخرى يمسك عضو الرجل الأسود الضخم الضخم ! ،

يميله إلى اليمين وإلى اليسار ، إلى أعلى وإلى أسفل ، ويحلق شعر العانة حوله ، كان الرجل الأسود لا يكف عن الضحك بفم واسع كحلق البرميل ، بينما خرج الرجال المستحمون جميعاً من الماء عراة ووقفوا حولهما يضحكون . كانوا أكثر من عشرة جعلوا يتناوبون ضرب الحلاق على قفاه فيقع موس الحلاقة من يده بينما الرجل الأسود لا يكف عن الضحك . يغسل الحلاق الموسى فى مياه الترعة ليعاود الحلاقة فيعاودن الضرب ، والرجل الأسود يشير إلى الحلاق المرتبك المتجمع حول نفسه وقاية من الضرب ، إشارات بأصابعه يفهمها "دومه" الواقف على الشاطئ المقابل يراقب المشهد ، بأنها تعنى تحذيراً للحلاق من أن يصيب الرجل الأسود الضخم بأذى ! كان الوقت أصيلاً والنسيم صافياً. المكان الخالى متسع ليس به إلا مياه زيتية تتحرك على مهل . ولا حركة فى الشارعين الموازيين للترعة . والمبانى العالية التى تشغلها محالج القطن صامتة بيضاء تكاد تدخل مع الفضاء فى لون واحد . لم يكن ثمة شئ يتحرك إلا بضع عصافير تتنقل فوق الحشائش القليلة على الشاطئ . قفزت معدة "دومه" إلى فمه وسقط قلبه إلى قدمه . صرخ الرجل الأسود الضخم واندفع ساقطاً إلى الخلف على ظهره كأنما قذفه مدفع والدم يتفجر من بين فخذيه كنافورة ، ثم تقلب على بطنه ويداه تمسكان بأسفله ! ، وصراخ كزئير طائرة قريبة

من الأرض يملأ الفضاء حوله ويسد أذني "دومه" وحشياً كأنه قادم من كهف ، أرسله منه أسد منسى . طارت العصافير القليلة لمسافة قصيرة ثم عادت تتنقل فوق الحشائش . صار الحلاق هو الذى يضحك ببلاهة رافعاً فى يده موسى الحلاقة وفى الأخرى عضو الرجل الأسود الضخم ينز دماً بينما الآخرون الذين كانوا يضربون الحلاق يفرون عراة صارخين صاعدين الشاطئ ويجرون على الطريق كبغال . مذعورة . ما كاد "دومه" يغلق فمه الذى اتسعت به المفاجأة حتى استكن الرجل الأسود على بطنه ولم يعد ينتفض . تباعدت ذراعاه وساقاه فبدا من ضخامة جسمه كحصان ميت . فى اللحظة التى أغمض "دومه" فيها عينيه دائخاً اختفى الحلاق .. فتح "دومه" عينيه فلم ير غير جثة سوداء وحقيبة صغيرة موضوعة فوق حجر فى اهمال . كانت مياه الترعة زيتية كما هى . العصافير تلهو . المبانى البيضاء باهتة . ظهرت تحت السماء سحب بيضاء رقيقة متفرقة . انصرف "دومه" ذاهلاً ولم يحدث أحداً بما رأى . فى الصباح لم يسمع أحداً يتحدث عن الواقعة ، ولا فى صباحات الأيام التالية ، وحتى الآن ! . لم تذكرها الصحف . ولا محطة إذاعة الأسكندرية المحلية ، ولم يتداولها المخبرون !..

كان "دومه" كلما تذكر الحادثة ابتسم . الآن تتسع ابتسامته أكثر من أى وقت . فالمقرئ يشتعل حماسه والجميع يتجهون إليه . ينظر "دومه" إلى وجه فؤاد للمرة الأخيرة فيرى فؤاد فى عينيه تصميماً هائلاً وغريباً ، وما يلبث "دومه" أن يقف ويصرخ وتخرج السكين .

- قتل عضو المجلس .

يصرخ رجل و"دومه" يضحك .

- قتل حسن بك .

- قتل حسن .

- قتل المعداوى .

هكذا كطلقات الرصاص كانت الكلمات الأخيرة التى سمعها فؤاد وهو يتسلل تاركاً الصخب والدم . لكنه وقد غادر الترام عند ميدان المحطة، ووقف منتظراً عربة تقله إلى القاهرة ، كان يفكر ماذا فعلت العشرون عاماً بالعشاق ! .

وكانت نظرة "دومه" إليه وهو ممسوك بأيدى أتباع حسن تخيفه إذ فجأة تذكرها فأطلت واسعة وسط ظلام الليل .

«انتهت»

كتبت ما بين عامى ١٩٧٩ - ١٩٨٢

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية .. قصة

العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
لا أحد يحبك	أماني فهمي
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطرية الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسني لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيري عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب اطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نمنم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
الطريق والعاصفة	رأفت سليم
فى لهيب الشمس	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
أنا كنده	كيروجا ترجمة : رزق أحمد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد فى ظل	عبد النبي فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلي	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــد	عبده خال
صعيدي صَح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
فى انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيرى
إينارو	د. على فهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبى	لوكيوس ابوليوس ترجمة د.على فهمى خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحى سلامة
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوى
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
حب وظلال	كوثر عبد الدايم
ترانزيت	ليلى الشربينى
مشوار	ليلى الشربينى
الرجل	ليلى الشربينى
رجال عرفتهم	ليلى الشربينى
الحلم	ليلى الشربينى
النغم	ليلى الشربينى
الخرابة 2000	محمد الشرقاوى
كوميديا الإنسجام	محمد بركة
أشياء لا تموت	محمد صفوت
الحاج	محمد عبد السلام العمرى
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمرى
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الهروب مع الوطن	ممدوح القديرى
نسيج الأسماء	منتصر القفاش
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخورى

شعر ..

العنوان	المؤلف
أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
قصائد حب من العراق	البياتي وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطي
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطي
تماماً إلى جوار جثة يونسكو	رشيد الغمري
كأنها نهاية الأرض	رفعت سلام
الألوان ترتعد بشراهة	شريف الشافعي
صلاة المودع	صبري السيد
دنيـــا تنادينا	طارق الزياد
تلف	ظبية خميس
البحر . النجوم . العشب في كف واحدة	ظبية خميس
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافى
حواديت لفندي	عصام خميس
سيرة الماء	د . علاء عبد الهادى
راتب الألفة	علوان مهدي الجيلاني
إضاءة فى خيمة الليل	علي فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوى
إذهب قبل أن أبكى	د . لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدي رياض
مشاعر همجية	محسن عامر
غربة الصبح	محمد الفارس
وَنَس	محمد الحسيني
ليالي العنقاء	محمد محسن
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لى	نادر ناشد

مسرح ..

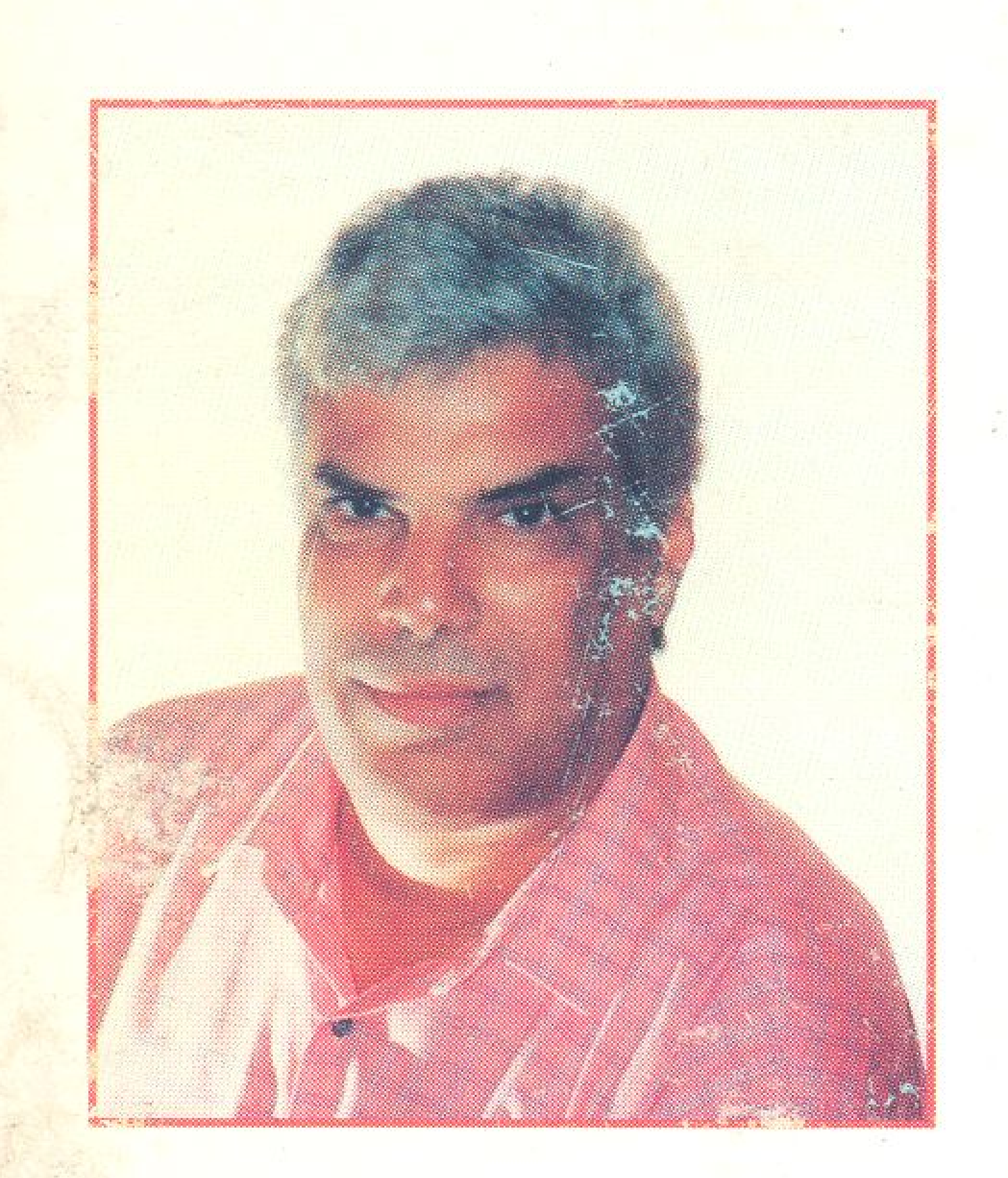
العنوان	المؤلف
هذه الليلة الطويلة	د.أحمدصدقى الدجانى
اللعبة الأبدية ـ (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
ملكة القرود	محمود عبدالحافظ

دراسات ..

العنوان	المؤلف
هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية	أحمد الأحمدين
قراءة المعانى فى بحرالتحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
اللغة والشكل	أمجد ريان
المثقفون العرب والتراث	جورج طرابيشى
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادى
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعوبية	سليمان الحكيم
البعد الغائب : نظرات فى القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رواد الأدب العربي فى السعودية	شعيب عبد الفتاح
الكتابة المشروع	شوقى عبد الحميد
رحلة الكلمات	د . علي فهمي خشيم
بحثاً عن فرعون العربى	د . علي فهمي خشيم
أعلام من الأدب العالمى	علي عبد الفتاح
هيمنجواى حياته وأعماله الأدبية	د . غبريال وهبة
زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة	مجدى إبراهيم
فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى
أدب الطفل العربى بين الواقع والمستقبل	ممدوح القديرى
الرواية العربية : رسوم وقراءات	نبيل سليمان

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - تراث - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

الآراء الواردة فى الإصـــدارات لا تعبـــر بالضـــرورة عن آراء يتـبناهـا المركـــز



ليلة العشق والدم

..لحظات نادرة تلك التى تتسع فيها داخل الإنسان موجات حنين صادق . اتسعت به الحجرة فى واحدة منها ، وتلألأ نورها وبكى . كل شئ من بين يديه تسرب ، ومن أمام عينيه جرى . جفف دموعه وهو يلعن الممثلين الأشرار والمتفرجين العميان . أى جبار هو هذا الزمان المصرى ، الذى جعل القلوب الصغيرة والكبيرة صلدة ، صدئة كقلاع الأجداد من العرب والفراعنة. المصريون الذين عُرفوا بالحنين والعويل ، المطرقون دائماً إلى الأرض فى جلال ، يخرج من بينهم أب أو ابن ، لا يسأل أحدهم عن الآخر .

مركز الحضارة العربية